



كتاب الهلال

أبو نواس قصة حياته

تأليف

عبد الرحمن صدقي



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

.....

العدد ٢٩ - ذو القعدة ١٣٧٢ - أغسطس ١٩٥٣

No. 29 - August 1953

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

مصر والسودان

١ قرشا سوريا

ن. ١١٠ قروش

- في سبائر

. ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



أبو نواس

بريشة الامتاد رافت البحري

أبو نواس

قصة حياته

تأليف
عبد الرحمن صدقي

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

مقدمة

توخينا في وضع هذا الكتاب ورسم معالمه وسيافته
أجزائه ، منهج التراجم الحديثة من اظهار المترجم له شخصية
حيّة ، موصول الرحم بآثائه ، معقود الأسباب بعصره ،
يستبان هنا وهناك في سماته ومتصرفاته عرق الوراثة وأثر
البيئة . ولقد أفرغنا وسعنا وبذلنا غاية جهدنا في الاستقراء
والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ، ومن ديوان أشعاره في
معظم الأحيان ، حتى تهياً لنا في ترجمته ما تهياً من تأسيس
البنیان وإقامة الأركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق
الحياة ، دون أن يخلو قول من سند له ، أو — على الأقل —
من مصداق على جواز صحته ، من سير الحوادث في التاريخ
العام ، وخصائص الشعوب في شتى البلدان ، وطبائع
الإنسان من حيث هو إنسان ، فجاءت الترجمة لأبي نواس
— كما يراها القارئ — مطردة السياق متصلة الحلقات ،
تنظم حياته من نشأته الى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع
قلة المراجع في هذا الشأن وانصراف الأقدمين الذين ترجموا
له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر — مع تصوير

دنياه وحياته الخارجية - تجلية حياته الوجدانية وتطوراته
النفسية ، ليتم التركيب وتحصل على قدر توفيقنا المعجزة ،
فيعود أبو نواس بعد نيف ومائة و ألف سنة الى عالم الحياة
بشرا سويا ، كما بقى فى عالم الأدب شاعرا متدارس الشعر
متعارف القدر عبقريا

عبد الرحمن صدقى



غرام جندی

كان كل شيء يؤذن بسقوط البيت المالك الأموى وأقول
نجمه ، بعد أن بلغت رقعة الملك في عهد بنى مروان مثل
الذى بلغت في أوج العظمة امبراطورية الرومان ، اذ كانت
دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقا الى المغرب
الأقصى والأندلس غربا . ولقد كانت العاصفة تهب من كل
حذب وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين
لا يرون في خلفاء بنى أمية الا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب
المغلوبة التى يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب
الساعة لخلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب وبطونهم تجيش
صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم
ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس
وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعنى غيرهم ، وفي غمار هذا
جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم ايقاد
جمرها وتأريث نارها

وفي هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة
مروان الثانى وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . وكان
مروان ربعة ، ضخمة الهامة ، أبيض البشرة ، أشهل (١)
العينين شديد الشهلة ، كث اللحية أبيضها . وكان شجاعا
حازما ، الا أن الفتوق كانت قد اتسعت قبل ولايته ، فلم
يغن فيها حزمه ولا شجاعته . ولم يطل قراره فى دست

(١) أشهل : تشوب سواد عينه زرقة

الملك حتى انتقض أهل حمص وفلسطين . فأبلى القائد
المحنك في حربهم وأوقع بهم وأحمد ثأرتهم ، وخرج عليه
الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز
والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن
ظهر عليهم وأجسلى من كانوا منهم باليمن والحجاز الى
حصرموت ومن كانوا بالعراق الى ما وراء دجلة
وطلب مروان بن محمد بعض الراحة والاستجمام في
قصره المحبب اليه في « حران » . ولكنه كان مع ذلك غير
مطمئن الخاطر من ناحية فارس وخراسان ، فأنفذ الجند
الى ما وراء دجلة للشحنة والرباط

حامية الأهواز

كان من الأطراف التى أوفد اليها الخليفة الأموى البعوث
لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة
وفارس . وكان من رجالها جندى من غمار الجند شاءت
المقادير أن يحفظ التاريخ اسمه طوال ما غير من سوائف
السنين ، وهو لا محالة حافظه في مستأنف الأيام الى أبد
الآبدين . ذلك الرجل هو « هانىء » . وكل فضله أن المقادير
شاءت أن يكون أباً لابنه « الحسين بن هانىء » . أحد الأعلام
الخالدين من شعراء العربية المجددين

قدم « هانىء » مع سائر أجنساد فرقته الى الأهواز ،
وأقاموا معسكرهم في ظاهر المدينة . . وكانت المدينة تعرف
بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من النواحي المجاورة
ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب اليها . ولم يكن
بين الجند من ارتاحت نفسه الى هذه النقلة للذى وجدوه
من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من
مناقع المياه الغليظة والسباح هبوة داخنة متصاعدة ، يقابلها
الجبل الصخرى الناصب المطل عليها ، فتنعقد في الجو وتزيده
حرا ووخامة . فاذا أظل الليل واستروحوا بعض البرد في

جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسع البعوض
فلا جرم يقبل بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالفون
ولم تلبث الحامية أن تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها
« هانيء » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلا ولا نهارا . وكانت
لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من
علته في آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى ، وظل أياما
بعدها وهو في سياق النقهة ، مأذونا له في الخروج للنزهة

نزهة العليل

وكانت سوق الأهواز تخرقها مياه مختلفة . وكان هذا
كل ما يستحبه « هانيء » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية
من مناظر دمشق الشام ، موطنه المحبوب ، وحاضرة الملك
وقتئذ وقصبة الاسلام . وهو أشد ما يكون انجذابا الى
ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يمل النظر الى
مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبية النواعير
والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ،
بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقا في تأمله ، يفوص
بنظراته في طوامى غمرته حتى يبلغ العدو (١) الأخرى

في عصر يوم شديد الحر خرج « هانيء » الى النهر ،
وأطال السير محاذيا له التماسا للنسيم وارتياذا للخضرة .
فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه خمائل أشجار
وشجيرات موقرات بالفاكهة والثمار ، ثم مزارع الأرز
مغمورة بالماء ، حتى اذا أبعد في المسير انبسطت على مد
البصر مفارس قصب السكر قائمة الشطاط كأنها الجيوش
الكثيفة اعتقلت الرماح الخطية ، فاذا نفت الى الناحية
الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأت نفسه روعة
وجلالا ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يعرجى في

(١) العدو : الجانب والضفة

حدود مسيله كالخيل اكمت في مجاريها ، وموجه يضطرب
ويغلى ويموج بعضه في بعض ويعلو اثباجه (١) من شدة
فوره وجيشانه مثل اللغام (٢) من قطع الزبد وطرائق
الرغوة ، وقد عج عجيجه وأرتفع هديره

ومضى « هانيء » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو في شغل
عن المسافة التي قطعها ، والتي يلزمه في العود أن يطوى
أدراجها ، حتى اذا انقطعت المزارع وتبدل اعينيه المنظر ،
ثاب الى نفسه فرأى الشمس جانحة للمغيب ، وطالعت
غير بعيد منه قرية صغيرة على سفح ربوة . وأحس وقتئذ
بما أصابه من التعب ، فمال الى صخرة يستريح

لقاء على غير ميعاد

وانه ليلتفت حوله الى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه
ظلال الصخور ، اذا بعينه تأخذ شخص امرأة على بعض
الحجارة المتقدمة في الماء ، وهي مكبة على شيء تفسله في
النهر ، وقد شمرت عن ساقها وحسرت عن ذراعيها ،
وهما كالعاج يضيئان من نضاعة البياض ، ولم تكن بالكثرة
اللحم ولكنها كانت بضة الذراعين تامة الساقين ، وكان
شعرها الأسود المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما ان
شمرت المرأة بالقادم أزاحت متهدل الشعر عن جانبي وجهها
ونظرت الى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف
من هيئته وبزته أنه لا بد من أجناد الحامية العربية . ولم
يكن هانيء يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة الى
التقحم والاجترأ ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت
فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر اليها معجبا ببياضها وملاحة
حركاتها . ولعل ذلك أزدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر
في الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقى عيناها . وقد وقع

(١) اثباجه : أواسطه وأعالیه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

— ولا شك — في نفسها قوامه وشاربه المفتول ووجهه
الأسمر الذهبى تحت عمامته العربية . فلما فرغت من
شأتها ، قامت تجمل أجانتيها (١) ولم تحفل من العجلة أن
تزم الجيب (٢) على صدرها . وقد توخت أن يكون طريقها
من أمامه . وأقبلت وهو ينظر اليها . فلما دنت ابتسمت له
وابتسم لها ، وتجراً فسألها عن هذا الذى معها فقالت
« صوف أغسله » . وعلم منها فى بعض ما علم أنها تنسج
الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد
رقت وكاد يختفى قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنسه
مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة فى
سفح الربوة ، وهى تميز ناعمة لينة ، وقد أبدى أعطافها
ثوبها المبلل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب الى
حقويها . فلم يملك هانىء نفسه أن تبعها على خطوات منها
حتى دخلت القرية ، وكانت الدروب على ضيقها تزحمها
قطعان الغنم القافلة من مراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع
هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتا من تلك البيوت
المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفت اليه
لفتة زادته لهفة على لهفة

ولم يبرح « هانىء » حتى تعرف المكان ، فعرف أنه
بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « استانه
أثار » (٣) ومعناه باب النار ، وأن اسم فائنته « جليان » أى
غصن الورد

(١) الايانة : اناء تغسل فيه الثياب

(٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وما قور منه

(٣) ورد اسمها « استان ماتارد » ولعله خطأ فى النسخ وتخليط بسيط
من تعريف الحروف عن مواضعها وصحته « استانه أثار » أى بإضافة
الميم التى بأول الكلمة الثانية الى النون فى آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ،
ثم جعل الدال التى فى آخر الكلمة الثانية سكونا على الراء ، فيكون اسم
القرية « استانه أثار » وهى بعينها « باب أذر » التى وردت فى مراجع

من نعيم الحب الى جحيم الحرب

لم ينعم « هانيء » طويلا بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها - قبل أن ينصل خضاب العرس من يديها - نفي الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامها واندلع في الأفق ضرامها .

الرايات السود

وفي ليلة الخميس ، خمس بقين من رمضان سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين اظهارا للدعوة واعلانا للثورة . فأقبلت العشرات والمئات والألاف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدة والسلاح وانتشروا كقطع الظلام تظللهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وهم الى ذلك ذوو عدد كثير ، وجلد ظاهر ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها

زوال دولة وقيام دولة

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية واحكام تدبير الثورة وتسيير دفتها ، أن أسقط في يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختل الأمر واستشرى الفساد وانخذلت

أخرى محلا لميلاده ، لأن استأنه معناها باب ، ولفظ « أتر » أو « أدر » أو « أذر » بمعنى واحد أى النار

الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان ، وهما على حد اصطلاحهم « المبيضة والمسودة » جيش مروان ممن اختارهم من جنود الشام والجزيرة وغيرهم وعسدهم مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش انشوار النكثيف برماحهم كأنها النخل غلظا ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البخت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » ، لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر لانشوار الخراسانيين وتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بنى أمية وظفر بالخلافة بنو العباس

العودة الى أحضان الأسرة

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، ومنها حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسي الظافر « أبو العباس عبد الله بن محمد » قد وجه عمه اسماعيل عاملا على كورها . وعاد « هانيء » الجندي القديم الى زوجته في قربتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد والسرور . فقد كان يسره أن تنتهى الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جلبان » كما تستقبل المرأة المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرح وماد بعطفها وغلب عليها . ولم يكن فرحها كله خالصا له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبين ، ولكنه مضمر في طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندي القديم وسيلة للكسب الشريف ، فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هى فى صنع الأخراج ونسج الجوارب . وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعى ، وألهما عن الفاقة ورقة الحال ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام

مولد شاعر

وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها عدة أولاد (١) ،
نعرف منهم فتاة يقال أنها كانت عند فرج القصار وهو
عبد كان لأحمد بن عصمة الله الباخري ، ونعرف من
الذكور اسماعيل ، ونعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو
الذي يقال أنه كان يعمل مؤدباً لأولاد فرج الرخجي الخباز ،
ثم نعرف الحسن - وكان مولده في القرية نفسها المعروفة
بباب النار سنة ١٤١ (٢) في عهد ثاني الخلفاء العباسيين أبي
جعفر المنصور - وهو الذي نبغ ذكره من الأسرة وبه

(١) قيل ان هانثا لم يكن له ولد ولا خالف غير أبي نواس ، وقيل ان
له أولادا غيره . وقد رجح الرأي الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد
أبي معاذ على السنين الرواة أكثر من مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم
زادنا ترجيحاً ما ورد في تاريخ الأمم والملوك للطبري في قوله في الجزء
العاشر في الصفحة ٢١٩ ما نصه : (وذكر عن إبراهيم بن اسماعيل بن
هانثا ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي قال هبنا عمك أبو نواس مضر
في قصيدته التي يقول فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ .) ولا يعنده
بقول أبي نواس متغزلاً :

لا تفجعي أمي بواحدنا لن تخلفي مثلي على أمي

فذلك ينصرف الى أنه كان أنجب اخوته

(٢) اختلف الرواة كعادتهم في مولد أبي نواس ووفاته . فذكروا في
مولده سنوات ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ وجاء في الجزء
السادس عشر في الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال :
« أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ وولد في
آخرها » . وذكر في وفاته سنوات ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ -
١٩٩ . ولكنهم على الإجماع أو ما يشبه الإجماع من أنه مات وعمره تسع
وخمسون سنة . ولما كان أبو نواس قد رئي الأمين وكان قتل الأمين
في سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفي سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده في
سنة ١٤١ . ولقد ذكر ابن قتيبة أن أبا نواس أقام سجيناً بأمر الرشيد
عند إبراهيم بن نهيك ، فلما مات الرشيد ، وخلفه محمد الأمين عام ١٩٣
أخرجه وهو ابن اثنتين وخمسين سنة ، فيخلص من ذلك أن مولد أبي نواس
عام ١٤١ ، وذلك مصدق لما تقدم . وهذان التاريخان لمولده ووفاته
يطابقان ما نقله جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الأصبهاني عن
أبي بكر أحمد بن شقير النحوي عن أحمد بن أبي طاهر

عرفت . وكان أخوه اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى
ابنه ابراهيم . كما كان أبو معاذ مع عطله من مذاهب الأدب
وقلة احسانه لشيء منها يتعیش بأنه أخوه ، ويظهر أثر ذلك
فيمن تأدبوا عليه من أولاد الرخجى . حكى ابن جحظة عن
بعض أهل الحيرة قال : اجتاز بنسا عمر بن فرج الرخجى
منصرفا من الحج فتلقيناه وأعظمناه وسرنا معه ، فلمّا
اجتاز بدير حنة سألنا عنه فعرفناه به ، فقال من ذا الذى
يقول « يادير حنة من ذات الاكيراح » ؟ فقال له الحسن
ابن هشام الحيرى : « هذا للحسن بن هانىء »

وهذا « الحسن بن هانىء » هو شاعرنا الذى عرفته
الأجيال بعد ذلك باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع
أكثر النقاد العرب على أنه أشهر الشعراء المحدثين



طالب عالم

كان بأطراف البصرة في بعض الدروب التي تخرج من سكة المريد ، بيت من القصب تسكنه امرأة أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذ طراز حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهد ، فلا جرم يكون ضعيف المقدرة مضيقا عليه في الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبان غلامها « الحسن » - وكان ابن سنتين (١) - غلاما من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عونا على كل حال لمن كان بموضعها من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جليان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها . وكانت من النساء برزة (٢) شملا ، لها على الحياة جرأة وإقبال ، فلم يركبها هم ولم تفتقر لها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تفشى البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناعات (٣) المدربة ، فانفرجت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت إلى دار في المدينة من الأجر والجص . ونفقت (٤) تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين في أشياءها من

(١) قيل في بعض روايات ابن منظور أن أبا نواس انتقلت به أمه إلى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذي آثرنا هو ما ورد في ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعي أن أمه كانت في البصرة ترضع بلبانه غلاما من ثقيف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعا وقت قدوم أمه به .

(٢) برزة : تبرز للرجال يجلسون إليها ويتحدثون .

(٣) الصناعات : الحاذقة في الصناعة (٤) نفقت : راجت .

الفواني والرجال ، حتى قيل انهم كانوا يلتقون عندها على موعد ، وانها كانت تجمع بينهم لريبة

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تفص بالسكان من كل لون وسحنة . فهي واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقا الى الهند والصين ، وتمتد غربا الى اقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن في فرضتها (١) تحمل اصناف المتاجر من ناحية البحر او الرافدين

وفي هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفي هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جليان » عيشتها في طلب الكسب . وكانت - مع ما يدخل اليها من ربح - لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صفار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها في البخل على نفسها وعلى ولدها

تقلب الأحوال في عصر الانتقال

ولقد زاد « جليان » استمساكا بالحرص ما كان يتقلب على عينيها أو يتصل بسممها في عصر الانتقال الذي تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحيانا من ثورات ويستشري من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وعلمت في الناس كلمته وملأت الصدور هيئته ، ومن ذاك ما جرى في البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة في سنة ١٤٥ لمحمد العلوي - الملقب بالنفس الزكية - من حفدة الحسن بن علي ، وكان معظم رجال البيت الهاشمي ومنهم

(١) فرضة بضم الفاء وسكون الراء محط السفن

المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة في أيام الثورة على البيت الأموي ، ثم عادوا فأثروا بها أنفسهم . وكان من شأن اظهار الدعوة أن وثب أخوه ابراهيم على البصرة ، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد الى البياض واتخذها مقره ، ثم أنبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلما وقر في النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أدبيل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعا ، حتى دخل على « ابراهيم العلوي » بشار بن برد مشيعا لعهد أبي جعفر المنصور متشفيا بمصير دولته بقصيدة مطلعها :

أبا جعفر ، ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم (١)
إذا بالجيوش العلوية تنهزم ، ويتبدل الحال غير الحال ،
وتعود البلاد كلها الى حوزة الخليفة العباسي فيعمل القتل
في العلويين ، وينكل بمن آزر دعوتهم من أشرف البصرة ،
يصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك دورهم
ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . فاختلطت الامور في
المدينة واضطربت الأرزاق ردحا غير قصير من الزمن
وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملائسة
لم يكن من شأنها أن تعدل بجلبان عن طبيعتها - لو صح
أن للمرء عن طبيعته معدلا - فهي ماضية في حرصها بتواطؤ
من طبعها وعقلها

الصبي في المكتب

ولقد دفعت جلبان الصبي منذ نعومة أظفاره كسائر
الصبيان في البصرة الى كتاب من المكاتب القريبة من الدار.

(١) لما قتل ابراهيم العلوي خاف بشار ، وكتب امر المصيدة برهة ،
ثم جعل ووضع « ابا جعفر » « ابا مسلم » ، وحذف منها أبياتا وأظهرها
بعد ذلك على أنه قالها في فدى الخليفة أبي جعفر لابقاعه بقائده الداعية
أبي مسلم الخراساني

فكان « الحسن » يغدو اليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدم الغلام فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير في المكاتب الضرب والحبس . والذي يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام في « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية في لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفص :	« إجلدوه »	إنه عندي بليد
لم يزل منذ كان في الدر	س عن الدرس يحيد	
كشفت عنه خزوزه	وعن الخز برود (١)	
ثم هالوه بسير	لئن ما فيه عود	
عندها صاح حبيبي :	« يا معلم لا أعود »	

التعليم الديني

وقد اشتهر في البصرة في ذلك الحين القارئ العالم يعقوب الحضرمي وهو من بيت علم بالعربية والأدب ، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح امام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة في القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهدا ورعا ناسكا ، فجعل يعلمه حسبة ولا يأخذ على تعليمه أجرا . وزاد أنه حين رأى حفظه وحذقه رمى اليه بخاتمه قائلا : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ! »

ولما شب الغلام رغب في الأدب وتعلق بالشعر . ولم يقع

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير ، والبرد ثوب مخطط

ذلك من أمه موقعا ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئا لما يحصل عنها في البصرة من وافر الأرزاق . فأسلمته على رغبة الى بعض العطارين يعمل عنده ويبرى له عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما في نفسه . وجعل كل يوم يأتي المسجد الجامع فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ الى سارية ، ولكل مرید أن ينتظم في الحلقة التي يريد . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر في المسجد على علوم الدين ، وانما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل والموضوعات

الدراسات الأدبية في المسجد

وكان « الحسن » يقعد بين من قعدوا الى أبي زيد الأنصاري النحوي اللغوي ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها وغريب ألفاظها . ثم كان يتحول الى « أبي عبيدة معمر بن المثنى » الفارسي الأصل العربي المربي (١) ، فينفسح له الأفق وهو يصغي الى كلامه المستبحر الجامع عن أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس ، وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحيانا ويبسط القول في مثالبها . ولقد كان أبو عبيدة - لأصله الفارسي - صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، واذا قرأ البيت من الشعر لم يقم أعراجه وينشده مختلف العروض ، مع وفور عقله واشتماله على علوم العرب حتى جرى قولهم فيه أن من يأتي مجلسه اشترى الدر في سوق البعر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه : « أديم طوى على علم »

ثم كان الحسن يقبل على « خلف الأحمر » - وهو من أبوين

(١) المربي على وزن مفعول : مكان النشأة والتربية

فرغانين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها بالشعر وتقده وبالشعراء ومذاهبهم — فيتلقي منه ويتلمذ عليه ويكثر من الجلوس اليه . وكان يشهد أحيانا في بعض الأركان من المسجد مناظرات الأدباء وملاحاتهم ويمر أحيانا ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يملون أشعارهم في شتى الأغراض من المديح الى الغزل

وكان يحضر الحديث على الامام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين الثقات . فاذا انتهى الكلام ، فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع اليهم ويأخذ عنهم

وظل الحسن أعواما على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل في المساء بين هؤلاء وغيرهم في مسجد البصرة وفي دورهم ، يلتهم علوم زمانه التهاما ، ويطوى مراحلها طيا . وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن معاناة الشعر وتسقط أخبار الشعراء وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان

المجون في حلقات الدرس

وكان الفتى جميل الطلعة ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفا كبير الهامة منسدل الدوائب ، معتدل القامة بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، فصيح اللسان ، لطيف المنطق مليح الإشارة أثغ بالراء يجعلها غينا ، وفي حلقه بحة لا تفارقه ، وذلك الى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان اذا دخل حلقة الدرس التفت القوم الى حسنه وحدائة سنه وجمعه خفة الروح والفراهة الى الذكاء وقوة التحصيل

وكان ممن لفتهم صاحبنا وقتئذ الشاعر محمد بن منذر . فقد دخل ابن منذر في بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ،

فوقعت عينه على فتى مستند الى السارية ، فالتمس رقعة ودواة فكتب اليه أبياتا مدحه بها ، وسأل غلاما ان يوصل الرقعة اليه . فلما قرأها الفتى قلبها وكتب على ظهرها ساخرا ماجنا :

مثلُ امتداحك لي بلا ورق (١) مثلُ الجدار يُنفى على مُخصِّ
وأنتُ عندي من مديحك لي سودُ المال وليِّنُ القُصصِ

فلما قرأها ابن مناذر قام اليه فقال : « ويلك ، أنت الحسن ؟ » . قال : « نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

اشتغال الأم عن ولدها

وكانت جليان قد شغلت عن ابنها بغرام جديد بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعبير لداته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجاهم وهاجوه بعد ذلك من أشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحقي :

إن يكن هذا النواصي بلا ذنبٍ هجـانا
فلقد عفناه حيناً وصفعننا ساء زماناً
هانيء الجـون^(٢) أبوه زاده الله هـوانا
سائل العباس ، واسمع عنه من أمك شانا

ولم يكن الا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقية الباقية من رعاية أمه . فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة التي لا تصبر على عزوبة

(١) الدراهم المضروبة

(٢) الجون الأسود اشارة الى شدة سمرة

ولا تغنى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد بكليتها
وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الإهمال ،
وتركت للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى
وأمه ، ولم يتصل سبب بينهما حتى موته

ولعل الفتى ارتاح في دخيلة نفسه الى ما صار اليه من
مطلق الحرية ، اذا شاء ركب رأسه ، واذا شاء لزم درسه .
فقد كان الحسن متقدما على سنه في بكور عقله ، وفي يقظة
حسه . فهو شديد النهم الى المعرفة والى الحياة معا .
وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة

الحياة في البصرة

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد
المصرين - البصرة والكوفة - اللذين كانا قبل بغداد يقومان
على اشاعة المعارف والعلوم العربية ، وسائر البحوث العقلية
والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان الأدب وضروب الثقافات .
وكانتا في ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران بالتواضع
والعظمة في كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك - بما
يزحم أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الاموال
والخيرات - حاضرة عظيمة من حواضر اللهو ، تعج بما فيها
من الملاهي وأسباب اللذة وموجبات الفتن والغوايات . وبلغ
من ذلك ان خلفاء بنى العباس حين فكروا في التحرز لملكهم
من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير
البصرة يقطعونهم فيها القطائع والضسياع الواسعة ،
ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى يشغلهم مقامهم فيها
بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة

وكانت المدينة في حفل من المناظر الحسنة والمجالس
الأنيقة تتخللها المياه وتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو
بالخصب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات الفواكه الاثيرة .

وكان واديهما الاعظم - مجتمع الفراتين المعروف بشط العرب
- يقبل مأؤه معنقا ويفيض متدفقا . وهو بالحدائق المتصلة
منتظم - فأوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب . -
وبينها معاصر الدبس . ولم يكن في الدنيا أكثر نخلا منها
حتى كان يباع بأبخس الأثمان ، وكانت النخيل تتصل
مسافات شاسعة إلى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون
الإنسان في مكان إلا وهو في نهر ونخيل ، أو بحيث يراها
ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمغلق القلب عن هذه
المفاتيح . وهو من علمنا من يقظة الحس وتفزز الأعصاب
وتشوف النفس . وكان يمر في كل صباح ومساء بالجداول
والبرك الفسيحة تجري فيها الزواريق والسماريات وفيها
المتنزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ،
منحدرين ومصعدين . فإذا احتواه حانوت العطار الذي
يعمل عنده تطرق إلى سمعه ما يذكره المترددون لشراء
الأطياب والبخور من وصف لما كان من مجالس اللهو ونوادر
السكر ، وأنشاد لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون في الخلعة
والمجون . حتى إذا كان العشية مع أهل المسجد لم تخل
حلقات الدرس من رواية بعض الملح والبطالات في الحين بعد
الحين ، يرويها المشايخ متفكهن غير متخرجين ، بحجة أن
في بعض الهزل تنشيطا للقلب وذهابا بالكلال ، فضلا عما
كان يلتقى بهم الفتى ويرافقهم في الطريق من الشطار
والعيارين ومن لف لفهم من خلطاء السوء

الذئب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين في البصرة بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار ائذى اسلمته اليه ، وان يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار . وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شربا ، وتتطرب لوزنه وتغمه ظربا ، وتفمرها منه غمرة تسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت أمنية حياته التي بها يحلم ، ان يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكرهم ويتغنى أهل العصر بشعرهم

عطار البصرة في الأهواز

وقد شاء القدر الساخر فيما يخلط من خير وشر ، أن احتاج عامل المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدي » الي عطر يعمل له ، فلم يجد في الأهواز عطارا يصلح لذلك . فبعث الي البصرة في طلبه ، فأشخصوا اليه أستاذ الحسن والحسن معه . وأقاما يعملان في داره . واتفق أن قدم الأهواز والبة بن الحباب الأسدي الشاعر قاصدا الأمير — وهو ابن عمه — فمدحه وأقام عنده . ووقع نظر الشاعر الفزل الماجن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب بظرفه . ثم خاطبه ووصل معه الحديث ، فسره ما كان عليه « الحسن » من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث ان اطلع منه تعلقا بالشعر ،

ورغبة في الاقتدار عليه ومجارة صاغة القريض ورواض
القوافي من الشعراء المذكورين
فقال له : « انى أرى فيك مخايل فلاح . وأرى لك ألا
تضيعها . وستقول اشعر وتعلو فيه . فاصحبنى حتى
أخرجك »

والبة بن الحباب

فتطلع الفتى متشوقا الى هذا الذى أحسن الظن
باستعداداه ، وقطع على نفسه العهد الاكيد بتخريجه ولم
يملك ان سأل مبدرا : « ومن أنت ؟ »
قال : « أبو أسامة » فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال :
« نعم ! »

فتهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمنا : « أنا
والله - جعلت فداك - فى طلبك ، وقد أردت الخروج الى
الكوفة والى بغداد من أجلك »

قال الرجل متعجبا مغتبطا : « ولماذا ؟ »
فاسترسل الفتى سابح انظرة فائر النفس : « شهوة
للقائك ، ولأبيات سمعتها لك » . قال : « وما هى ؟ »
فأنشد الحسن بصوت حلو ألثغ ، يجعل الرء غينا ، وفى
نبرته حرارة الاعجاب وهزة التأثر :

ولها - ولا ذنب لها - حُبُّ كَأَطرافِ الرماحِ
جرحتْ فؤادك دلهوى فالقلبُ مجروحُ النواحي
فازداد والبة حبا وعجبا

وكان والبة مذكورا فى البصرة ، وقد شاع ذكره
واستطارت شهرته فيها لقدومه فى جملة من قدموا على
« محمد بن أبى العباس السفاح » حين ولاه عليها الخليفة
أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٧ بعقب مقتل إبراهيم
العلوى . فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء

والمغنين ، وأصحابه عمه المنصور - داهية بنى العباس -
 قوما يعاب بصحبتهم . ومجانا زنادقة ، ليبغض ذلك منه
 فارتفع ابنه المهدي عند الناس . وكان « محمد بن أبي العباس »
 يغلف لحيته بأواق من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير
 مسمرة حتى لقبه أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن
 يغنونه دحمان وحكم الوادي ويشترك معهما أحيانا مؤدبه
 الخليل حماد عجرد في جماعة من ندمائه منهم والبة ، وهم
 جميعا يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر
 فينامون في مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوي البنية
 شديدا نهاية في الشدة ، فكان أول من يفيق منهم . وكان
 يهوى « زينب بنت سليمان بن علي » فإذا شرب غنوه بما
 قال - أو بما قال حماد عجرد على لسانه - تشبها بها
 فيطرب ويضرب برجله . وكان يأنس أشد الأنس بوالبة ،
 ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ، ويستحسن شعره ووصفه
 للشراب ، حتى يؤثر عن ذلك في البصرة أن حكما المغنى دخل
 عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فإذا به يتململ خمارا
 وييده كأس وهو يجتهد في شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين
 يديه وفي أيديهم أقداحهم . قال : « يا حكم غنى ، فان أطربتني
 فلك كل ما يهدي إلى اليوم » وكان بين يديه من الهدايا أمر
 عظيم . فعمد الحكم إلى أبيات لوالبة ، فاندفع يغنى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ
 واليوم هو نيروزُ قد عظمت المجوسُ
 لم تُخَطِّبْ في حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مرات ، وعب قدحه ،
 واستمر في شربه . وأمر لمطربه بأن يحمل إليه كل ما كان
 بين يديه

وكان هذا وغيره من الاخبار والأشعار يشيع عنه في
البصرة ويتسامع به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها في
تلك الايام . ' فوقع الحسن - ولا جرم - تحت تأثيرها ،
وأخذته شهرة الرجل بسحرها : فلما التقى به ، كان تلقاه
كالمنوم خدر النفس مضطجع الحس مسلوب الإرادة . فلم
ينشب والبة أن اختدعه حتى صار معه الى الكوفة

الاستاذ وتلميذه في الكوفة

ورد الغلام مع أستاذه الى الكوفة ، فطالعه من جانبها
الشرقي نخيل ملتفة متصلة تمتد امتداد البصر ، وألفاها
الطف من البصرة حرا ، وألقى الهواء فيها أصح ليس بالرطب
الثقل ولا بالذي يختلف في اليوم الواحد ، وهي كذلك أطيّب
ريحا بما في سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف
البصرة اذا هبت الجنوب على أرضها النشاشة السبخة .
والكوفة مرتفعة عن البصرة معظمها على الفرات ومنه شرب
أهلها . ويأتيها الماء بعدوبته وبرده ، ولا يأتي البصرة الا بعد
تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح اللعاق اذا كان المد في
الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى
الحسن - وان كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح
لوالبة وصحبه - أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد
صباه لم تزل أحب الى قلبه وأحلى في عينه من أختها الكوفة ،
وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقا وأزحم قدما وأدوم
حركة ، كما أنها أشد تنوعا وأبهج مجلى ، أوتيت من كل
حلى وزينة

مهاترات الشعراء

وكان والبة بن الحباب على قولهم في نسبته - أسديا
صليبة . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منه
بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمره ذهبي الشعر - كما

تدل عليه صفته في هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه
اذ يقول من قصيدة :

وابن الحُباب صليبة^(١) زعموا ،
ما بال من آباؤه عَرَبُ الأ
أترون أهل البـو قد مُسخوا
أ كذا خلقت «أبا سامة» ، أم
مالي رأيت أباك أسود غر
وكان وجهك حمرة رئة^٢
ومن قصيدة أخرى :

أوالب ! ما دهاك ، وأز
أراك وُلدت بالمر
بفت أفسيشر الحد
هائم إلى الموالى التـ
فأنت بنا - امر الـ
ت في الأعراب ذونـب ؟
غ يا ابن سبائك الذهب
ن ، أزرق ، عارم الذهب
د في سعة وفي رَحَب
ه - أشبه منك بعرب

واهاجى الشعراء في والبسة كثيرة ، وأكثرها فاحش
مقدع كالذى هجاه به «سلم الخاسر» - وهو راوية بشار
وتلميذه - لما كان عليه والبة من المقابح والمقادر الخلقية

خلط الفنون بالمجون

وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجسد من
العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد في الدين

(١) صليبة : يقال عربى صليب أى خالص النسب
(٢) غريب : حالك السواد - الفذال : مؤخر الرأس - زرزور : طائر
أكبر من العصفور لونه أسود

ممن اشتهروا في مدينة الكوفة الجليلة ، وفاخرت غيرها بهم . وانما كان يجتمع اليه في الكوفة جماعة منهم مطيع ابن اياس ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عبثهم بالجوارى والاماء يعدون أقدم المتهتكين في تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون في بعض دورهم على الشراب والقناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم على بعض أقبح العريضة ويتهاجون هزلا وعمدا أفحش الهجاء . وكان أهل الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترقون ، ويتشاوركون فلا يكاد يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب فكلهم خلعاء مجان مستهترون ، ليس فيهم الا متظرف منسوب الى الزندقة خبيث العقيدة متهم في دينه . فلما قدم والبة الى موطنه ومعه الحسن ، وجه الى أصحابه وندمائهم ، فجعل لهم مجلسا احتفاء بتلميذه ، ولبثوا اياما في صبوح وغبوق ، يسمررون ويتمازحون وينشدون الأشعار

وكان والبة ماجنا طبعها . وكان مضياعا متخرقا في النفقة على الجوارى والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبدولة للمنادمين وعلى الخوان ممدودا للاخوان المؤاكلين . حافلا بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهو مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه في المطاء ، فلقد فاته الحظ في منادمة الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدي لبعض أشعاره ، كراهة منهم لاسفافه في أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القدرة واستهتاره فيها . وانما كان يقصد الى من يشاكلة من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا لا تدوم لهم دولة . ولا يقامون بعملهم حتى يصرفوا عنه ويزالوا . فلم يكن له من معول على غير المجدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه حظوة أو أقل تبسديرا من أقرانه . ومن ذلك

ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبي بجير الأسدي عامل
الأنهار ، ثم ما نحن ذاكره من قصده الى الشاعر حماد
عجرد يطلب اليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة
اليه . ويقول الرواة في ذلك انه سأله عما وعد ، فقال
حماد « لم أصنع شيئا » ، فدعا والبة بدواة وقرطاس وأملى
من كتب له هذه الأبيات :

حماد ما كانت عدا	تُك بالعيدات الكاذبه
فعلام ، ياذا المكرما	ت وذا الغيوث الصائبه
أخّرت - وهي يسيرة	في الرد - حاجة « والبه »
فأبو أسامة حقه	أحد الحقوق الواجبه
فاستحي من ترداده	في حاجة متقاربه
ليست بكاذبة ، ولو	والله كانت كاذبه
فقضيتها أحمدت غب	قضاها في العاقبه

وبديهي أن حماد عاجز انما يسمع لأول مرة من يمدحه
وينعته نعت ذوى المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ،
فلا غرو أن قيل بعد ذلك انه قضى للمادح حاجته وزيادة
وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر في
دساكر طيز ناباذ بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى
يسكر ، ولا يفيق من السكر الا ليعاود الشرب ، ويقيم على
ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن » الى هذه
الاماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا ينى يغمز عليه
الساقى فيسقيه حتى يتلف ، فاذا هو الى جانبه سكران
لا يعقل ولا يعي ما يفعل ، قد خلع الحشمة ومجن . ولقد
ذهب ذات مرة في المجون أن جعل والبة في سكره يقبض

على السكين ويهم بقتله ، اولا ما اظهر الفتى من سرعة
البادرة واستحضاره لمثل من الأمثال السائرة ضحك له
أستاذة الخليع . وظل والبة على هذه الحال مع تلميذه
يحيى عليه بالشراب ويفريه بالمجون والاستهتار ، حتى
تم له مراده من توهين خلقه وافساده

بوادى شاعرية

واذا كانت هذه المعاشرة لوالبسة واصحابه قد علمت
« الحسن » الفساد والعهر ، فقد هيات له الاتصال
بالشعراء ، وحفزته منادمتهم فى مجالس السكر الى النطق
بالشعر . ومما يروونه فى ذلك أنه اجتمع وهو صغير فى
صحبة أستاذة بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن اياس
ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن منا اجتماع فى دار احدنا »
فقال حماد :

يا إخوتى عندى لكم بطّة^(١) ودّن^(٢) خمر من رّساطون^(٣)
ولحم طير^(٤) وأتايعه فإن نَشِيطُم فأجيبونى

وقال مطيع :

الاهو عندى جميعاً حديثه^(١) وعتيقه^(٢)
وقرطقى^(٣) شهى^(٤) يفوخ^(٥) منه مخلوقه^(٦)
والخمر عندى عتيق^(٧) يشفى القلوب غبوقه^(٨)

(١) لفظ رومى معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل
(٢) قرطقى : نديم يلبس القرطقى ، وهو ضرب من القباء من زى العجم
(٣) ضرب من الطيب (٤) الشرب بالعشى
(٥) يشفى القلوب غبوقه (٦)

وقال يحيى بن زياد :

عندي نبيذٌ معسلٌ والموصلُ وزلزلُ (١)
وبطّةٌ وخسروف وماءُ مُزَنٍ مزمّـل
وبربطٌ وصنوجٌ (٢) وصوتُ نايٍ وجُلجلُ

وعندها التفتوا جميعهم الى « الحسن » كأنما له - وهو
الصغير الغريب بينهم - دار ومال مثلهم ، فأرتج عليه لحظة
ثم ضحك وقال :

لا تطعموا في شرابي فتسحبلوا في السراب
فدون خبزي ولحمي والتمر شيبُ الغراب

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادى على
الشراب . وكان ينعقد لهم في كل يوم مجلس من هذه
المجالس في عقر دورهم أو على سطوحها أو في ظاهر المدينة
بين البساتين أو في بيوت الخمارين . ولقد أفاد الفتى من
ذلك مرانة على النظم وقدرة على الارتجال ، وصار في
مقدوره - كلما شاء - أن يكون كلامه كله شعرا بغير جهد
ولا معاناة . خرج يوما مع والبة من الكوفة يريدان الحيرة
وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص في الرمل وقد جاعا ، فدار
بينهما من المقال ما يدور في أمثال هذه الحال إلا أنه شعر :
الحسن :

يا ليت فيما بيننا رِسَّةٌ أرغفةٌ ما بينها ورّة

(١) الموصل وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء (٢) البسربط نوع من
العيدان والمزاهر ، والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على
أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار

والبة :

من وزّ أرض الصين يُؤتى بها مشويةً تتبعها رزّه

الحسن :

خوذابة ، تُؤخذ من بعدها خمر من الحيرية المزّه (١)

والبة :

يديرها ساق وقد شابها من ماء مزن صوب مؤتزّه (٢)

الحسن :

طاب لنا العيش ولنكننا أرجلنا في الرمل مرتزّه (٣)

وجملة القول ، أن تواتر هذه المناديات والمطارحات ، كان داعيا للحسن على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته الى ادراك المعانى واقتناصها ، والاستعداد لها باللفظ المناسب والقلب المحكم . فكان فى كل يوم يزداد تمكنا من فنه ، ويزداد معه ثقة بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقل عنهم

(١) خوذابة : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة

(٣) مفروزة ثابتة

صبوات الصبا

كانت الكوفة في ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجل المقينين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيعة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيعة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء لينة . وكانت أوفرهن حظا سلامة الزرقاء وكانت تخرج الى المعجبين بها في ازار ورداء قوهيين (١) موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيتها ، وقد أشالت نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبر خفيف مخضر ممتد على شفتها ، وكأنما خطت طرتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسناتها الوصف

وهؤلاء الجوارى القيان قد شهر بهن الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الامارة . وكانت تبذل أموال عظيمة في شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة لتكونا لها الا أن تأخذهما بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح

(١) نسبة الى قوهستان

ابن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغنت الزرقاء ، فبعث معن اليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح اليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث بصك ضيعته

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منيع مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع اليه أشراف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهما على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية

صبوة الشاعر الصبى

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدم « الحسن بن هانئ » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان ، فكن يعاطين هؤلاء المجان الراح ، ويستحشّن اليهم الأقداح ، ويسابقنهم الى الشرب ويجالسهم متبذلات ، ويطارجنهم المجون والبذاء ، فضلا عن اللعب بالعود والغناء . ولعل « الحسن » كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المجربات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف وولع الكبار منهم بالصفيرات خاصة ، هى التى شاءت لهن أن يصبحن معهن الى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتى يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة

الشباب وأدركهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن
وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابسة
وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أفر
نشاطا وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن وخلاعتهن
ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسرهن وكثرة تضاحكهن
وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فانها تختلف عنهن :
مهففة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها
حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهي الى
الغزال أقرب منها الى المهاء . وكانت خفرة مسبلة الهدب
غضيفة الطرف ، خدها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه
أول خروج لها من خدرها

ولقد تلقتها الجماعة لقاءهم لغيرها بالمرح والعبث شأن
أهل اللهو ، الا « الحسن » شذ عنهم في هذه المرة ، وكأنما
أنسى ما أخذه عنهم من العريضة والمجون . فبقى معهم سواد
الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على
نفسه في الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم
له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يلهم عنه ما هم فيه من
السكر لألفوا الفتى في وجومه يلحظ الفتاة ويختلس اليها
النظرة ، وهى على حيائها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة
والالخاف الا النغمة بعد النغمة مستكرهة للشرب لم تتعوده
تعود المتوفرات على مجالسه

وقضى الجماعة والجوارى سهرتهم على المألوف من سنتهم
في المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدأ فلق الصبح ،
فاستقبلوه بالصباح ثم تفرقوا

وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويدم
التفكير فيها . ولعل الذى وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب
العمر ، وتلك الغرارة التى لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء
حتى لقيها . وانه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى

في كيانه وينساب الى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه
ويخالط قواها

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجسوارى في زوراتهن ،
و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت
ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفه
السقام . وزاد في بلائه كما زاد في عجبه ان رأى فتاته لم
تنشب أن تعودت الشراب حتى انسبقت مع الجماعة ،
منصرفه عما كان يبدية لها من جد الحب ، مؤثرة لما هم
بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب

مقطوعة الغزل الأولى

وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت
في خاطره المعاني ، فتحركت شاعريته وأنبعثت ملكته ،
وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجداني صادر
عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى تعيبُ	يستخفُّه الطربُ ^(١)
إن بكى يحقَّ له ،	ليس ما به لعب
تضحكين لاهية	والحب ينتحب ا
تعجبين من سقمي ا	صحتي هي العجبُ
كلما اتقى سببُ	منك ، جاءني سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من
النساء غيرها وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرضن
لهذه الحياة الطائشة المتقلبة وينزلن في غمارها

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر
وهو صبي

ولكن الفتى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة
الا بعد توكيد العبرة . فقد اقترن في نفسه ما كان من أمه
وتفريطها فيه وهو صغير ايثارا للزواج ، ثم ما كان وهو
شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جد
العاطفة الى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له في بداية تكوينه
من هذين رأى في « المرأة والحب والحياة » بقى في نفسه
وحسه مثل وسم النار لا ينمحي آخر العمر

ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل
عليها ولا ملتذ طعمها . والذكرى تراجعته ، وخيال الفتاة
يعاوده . ومن كان مثله في سن العشق ، لا بد أن يتحرق
من لاعج شوق . ومهما يكن في هذه السن من غلبة الطبيعة
وتيقظ الحس ، فانها أيضا أوان تفتح العاطفة والاستجابة
الوجدانية لدواعي النفس

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة
حبه الصبياني من ملابسها المادية ، وتحولت صورة الفتاة
في مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت في باطن وعيه وقرار
سريره كالمثل المجردة في عالم المعاني

تباشير بمطلع شاعر كبير

واتفق وهو في هذه الحال أن قدم بصحبة والبة الى
منزل محمد بن سيار بن يعقوب ، ولديه قيان أخرجهن
لندمائهن ، وجلس ابنه في صفهن وكان جميلا رائعا في العين
مع حسن موقع في النفس . فكان من فيض خاطر
« الحسن » وسبحاته العبقريّة انشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة
الروحية

يا ظي يا ابن سيار وزين صف القيان
خلقت في الحسن فرداً فما لحسنك ثان

كأنما أنت شيء حوى جميع المعاني
لَيَنعَتَنَّكَ وهمي إن كلَّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة في بعض
أوساط الكوفة ، فاتصل به أدباؤها ورغبوا في صحبته ،
فشاهدوا منه أدبا جما ، وكبر في أعينهم وعظم موقعه
عندهم . وكان أشدهم شعورا بعظم استعداده وما هو
مدخر له في مستأنف حياته ، أستاذه والبة بن الحباب ،
حتى عرض ذلك له في الأحلام

فانه - فيما يرويه عن نفسه - يقول : كنت نائما ذات
ليلة ، والحسن الى جانبي نائم ، اذ اتانى آت في منامى .
فقال الهاتف : « أتدرى من هذا النائم الى جانبك ؟ » .
قلت : « لا »

قال : « هذا أشعر منك وأشعر من الجن والانس . اما
والله لأفتنن بشعره الثقلين ، ولأغرین به أهل المشرق
والمغرب »

فعلمت أنه ابليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »
قال : « عصيت ربي في سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن
أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت »

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الاحسان في قول ،
فكان من ذلك أنه - على صغره - لم يأخذه الشك في شعره ،
بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير عليه لأحد ممن حوله
كبير تقدم ومزية ، فأدركته أنفة من الحياة التى يحيها مع
والبة . فاعتزم الرحيل ، وآذنه به ، معتذرا بالخروج مع
وفد لبنى أسد الى البادية في طلب شوارد اللغة والاحاطة
بغريبها والتمكن من مذاهب الأعراب في الجزالة وفحلى الكلام

أثر البادية

اقام « الحسن » في البادية سنة أفادت روحه في أثنائها مسحة من روحها واكتسب من صحة جوها بعض الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياة الفطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد الى البصرة من بعدها مثقل الجعبة من مآثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرف أرضها وسماؤها ونباتها وحيوانها ، حتى أصبح أعرف أهل الحضر بها وأبصرهم بحالها ، وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد المختارات في بابي الصفات والطرديات

نقطة التحول

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل ، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الإعجاب بوالبة - أستاذه الأول - وتغنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنهم وقد لقيه أنه غير مفارق له العمر كله . فكان « الحسن » أول عودته يسمع في كل خطوة من يقول له بعد تحيته : « أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ ! » فيجيب موجزا متأدبا : « هي أجدى وأطيب من أن تمل ، ووالبة ممن لا يرغب عنه ، ولكنني نزعت الى الأوطان واشتقت الى الإخوان »

الحياة الجادة

واستأنف « الحسن » في البصرة حياة الدرس والتحصيل وكان حلقات الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن يغشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد بلغ من ذلك أن تحدث عنه جماعة من الرواة ممن شاهدوه في مستقبل أيامه فقالوا : « كان أقل ما في الحسن قول الشعر ، فقد كان فحلا راوية عالما »

وبالبصرة أسبق عهدا من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلمائها من أرسخ الناس في العلم قدما وأغزرهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سندا ، مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بني العباس لهم واتخاذ المؤدبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرهم إياهم والسرعة إلى تلبية الدعوة دون أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات الدرس التي كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحد إلى مثله ، وامتنع في اعتقاد القوم أن يلحقه أحد من بعده ، فهو الإمام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم أنه كتاب سيبويه ، و « قرىء الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان أشرف هدية تهدي إلى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظره فيه

الاستاذ الثاني

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة إلى

البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » .
ولا جرم ، فقد كان شاعرا يعاني نظم القريض ويحسنه ولم
يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الاقدم في
أستاذيته والبة بن الحباب ، فان خلفا الأحمر كان هو الأكثر
تأديبا وتخريجا له

و « خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة، وكان أوسع
الرواة رواية لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ،
وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب « العباس بن الاحنف »
الشاعر الغزل المعاصر، فما هو الا أن أورد عليهم خلف الأحمر
نسيب الاعراب حتى صار زهدهم في نسيب العباس بقدر
رغبتهم في نسيب الاعراب (١) . وكان خلف يقول الشعر
فيجيد، وربما نحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم
لمشاكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير
الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون
إذا روى خبرا أو أنشد لهم شعرا ألا يسمعوه من صاحبه .
وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببیت
شعر ، من احتكام بعضهم اليه واستنصاحهم اياه . ولقد
شاع في ذلك قول مروان بن أبي حفصة له : « نشدتك الله
يا أبا محرز ، الا نصحتني في شعري ، فان الناس يخدعون
في أشعارهم » . كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد
حضر مأدبة كان فيها خلف الأحمر وتلميذه الاصمعي . فقال
الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! ان يكن النابغة وامرؤ القيس
وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة . فقس شعري الى
شعرهم واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى
العريضة . ثم أخذ صفحة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ، فقام
ابن مناذر مغضبا ، ولعله هجاه بعدها من جراء ذلك

ولم يكن خلف الأحمر ضنينا بشيء من أدبه على تلميذه

(١) البيان والتبيين للجاحظ

«الحسن» ، واذا كان والبة قد جراه على الشعر كما جراه على السكر وهو غلام ما طر شارب به بعد ، فان خلفا في تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطسه في النقد ، عمل على كف جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أدواته وتقوية ملكته قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر الا أن تحفظ ألف ماثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . فعكف الحسن يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوى الذاكرة ، فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر قلب لا يخرم منها حرفا . فلما أظهر الاستاذ أن ذلك حسبه وأن الذي أداه التلميذ فيه مقنع وأى مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له في نظم الشعر . فاذا الاستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك الا أن تنسى هذه الالف الارجوزة كأنك لم تحفظها » وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجبا : « هذا أمر يصعب على ، فاني قد أتقنت حفظها » فأصر الاستاذ : « لا آذن لك الا أن تنساها » . فذهب الحسن الى بعض الديرة خاليا يتفرج وأقام مدة حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكدا : « قد نسيتها حتى كأن لم أكن حفظتها قط » . عندئذ قال الاستاذ : « الآن انظم الشعر » . ولقد روى عن شاعرنا أنه قال : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الحسناء وليلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذي أخذ به الاستاذ تلميذه ظاهر فيه أنه انما أراد الى تخريج شاعر لا راوية . ومن ثمة كان دفعه اياه الى التكثر من المحفوظ ثم الى تعمد نسيانه ، تحقيقا للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير قتل لمكة الشاعر المطبوع فيه

ولقد جاءت أشعاره وهو فى كنف أستاذه شاهد صدق
على مبلغ ما كان من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب
ومن هذا القبيل رثاؤه لاسعد بن عصمة المشهور بأبى
البيداء الرياحى وهو أعرابى نزل البصرة يعلم فيها الصبيان
بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من الفصحاء ينقل الرواة عنه
وروى له « الحسن » شعرا • ومن شعره يتغزل :

قال فيها البليغُ ما قال ذو العــــى ، وكلُّ بوصفها منطيقُ
وكذاك العدوُّ لم يعدُّ أن قا ل جميلاً - كما يقول الصديقُ

وقد أتت مرثية « الحسن » فيه - كما هو المرتقب لذلك
الحين منه - متوعدة ، عليها جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية
وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة ومطلعها :

هل مخطئٌ حَتَفَه عَفْرٌ بِشَاهِقَةٍ رعى بأخفافها شتاً وطباقاً

الى أن قال :

زار الحمامُ أبا البيداء مخترماً ولم يغادره فى الناس مطراقاً (١)

ومن طريف ما ذكر أن الأستاذ الأحمر قال ذات يوم
لتلميذه الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريجه :
« ارثنى وأنا حى حتى أسمع » • فلم يمهل الحسن أن جاء
بمرثية لم يملك السامعون لها الا استجاداتها ، ولكنهم
تعللوا وقالوا له ان كنت قلتها فقل فى نحوها • فاعتزل
وعمل فيه أخرى • فلما أنشدها وقعت موقع سابقتها • فقال
أستاذه : « أحسنت والله » • فقال الفتى مازحاً : « يا أبا
محرز ! مت ، ولك عندي خير منها » • فقال : « كأنك
قصرت ؟ » • قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعث الحزن ! » •

(١) نظيراً

ولما لم يكن سبيل الى ارجاء الاستاذ حكمه حتى يرى ما يقال
فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بني !
ان شعرك فوق سنك * ولئن عشت ، لتكونن رئيسا في
الشعر »

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم .
واحداهما رجز ومطلعها :

لو كان حيُّ واثلاً من التَّلَفِ لوألتُ شغواءُ في أعلى شعفِ

والاخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها الا أنها
ليست رجزا وهي مثبتة في ديوانه كأختها ، الا أنه في هذه
وتلك أبيات لا بد من آيادها وهي قوله في الاولى :

أودى جماعُ العلمِ إذ أودى خَلَفُ

مَنْ لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفُ

فكلما نشاء منه تعترف

روايةٌ لا تُجتنى من الصحفِ

ومثله في القصيدة الثانية :

أنسى الرزايا مَيِّتُ فُجِعْتُ به

أُمسى رهينَ الترابِ في جَدَفِ

كان يُسَنِّى بِرِفْقِهِ غَلِيقاً

في غير عيٍّ منه ولا عنفِ

يجوب عنك التي عَشِيتَ بها

من قَبْلُ حتى يَشْفِيكَ في لطفِ

ولا يسمى معنى الكلام ، ولا
يكون إنشاده من الصحف
وكان ممن مضى لنا خلفا
فليس منه إذ بان من خلف

وهذه الأبيات من المراثيتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها
بليغة الدلالة على مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان
التلميذ يكثر من ذكر أستاذه ويفاخر به . ولم يزل يقول
فيه « جمع علم الناس وفهمه » . وكان خلف — كما تقدم —
له حذق بالشعر وطبقة فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر
حمله عنه « الحسن »

الخلاف على نسب الشاعر

كذلك كان التلميذ أثيرا عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر
من لسان أنه كان من أميل الخلق الى « الحسن » وأنه يوده
أكثر من غيره من الشعراء . ولما كان خلف ولاء في الأشاعرة
وكان أحد عمال اليمن وكان عصبيا ، فقد استدعى « الحسن »
يوما وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن باسم من أسماء
الذوين » . والذوون هم المصدرة أسماءهم بـ « ذو » من
ملوك اليمن . وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيره ، فاختار
منها « ذا نواس » . فكناه « أبا نواس » . فصارت له كنية
وغلبت على « أبي علي » كنيته الأولى . فهو منذ ذلك الحين
الى يومنا يعرف بين الناس عوامهم وخواصهم « بأبي نواس »
وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبي نواس في
الادب هي التي جعلته يدعو الفتى الى اظهار نسبته الى
اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصبا لها
والانساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد

وقع من ذلك للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه، بالتفنيد
لدعواه وتهجين نسبة بالحق وبالباطل
وكان أبو نواس من نسل الموالي ، فادعى في أول دعوته
أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تميم اللات . ولكن
شاعرنا لم يهنأ طويلاً بدعوته إذ قيل له ان الرجل الذي
تدعى اليه لا عقب له ، لانه فليج ومات عن غير ولد، فاستحى
الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم
ويراقبهم . وأمضى بعد ذلك صـادراً من عمره يخلط في
دعوته . فتارة يدعى للنزارية وينتسب للفرزدق ، وتارة
ينقلب على النزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة « حكم » .
وكان كلما ادعى لواحدة هجا الاخرى وأقذع في هجائها
حتى هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه
عليه وغمزهم له تلميحا ووقوعهم فيه تصريحاً . ومن ذلك
هجاء الفضل الرقاشي له :

نبطيٌّ ، فإذا قيل له :

« أنت مولى حَكَم ؟ » قال : « أجل »

هو مولى الله - إذ كانت به

لاحقاً ، فالله أعلى وأجل

واضحاً نسبته حيث انتهى

فإذا مارابه ريبٌ رَحَسَلْ

ولقد ظل الرقاشي وأبو نواس يتهاجيان فما أمسك واحد
منهما عن صاحبه حتى فرق الموت بينهما

وكذلك قول سليمان بن أبي سهل بن نوبخت :

وَيُسَمَّى إِلَى حَكَمٍ دَعْوَةً وما إن له نَسَبٌ في حَكَمٍ

على أن المذكور في أمر أبي نواس أنه كان بالفعل مولى
الحكميين . وهي قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله
الحكمي أمير خراسان وقد كان جد أبي نواس من مواليه .
ومن أجل هذا تكرر من الشاعر فخره باليمن ومدحه اليمانية ،
وإذا كان قد عرض لها بالشتيم مرة فذاك من حر غيظه وغليان
صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حديج الكندي ،
وقد قال فيه :

وتَسَحَّدْتُ ، حتى يخاف الجليسُ

أذاك عليه من الحدة

وتختم ذاك بفخير عليه

بكفدة ، فاسلح على كنده

ولم يلبث الشاعر أن اعتذر من ذلك أشد العذر ذاكرة
أنه يمني وأنه لم يجاوز بشتيمه اليمانية أن سب نفسه وأهان
والده :

فأقسم ما جاوزت بالشتيم والدي

وعيرضى ، وما مزقت غير أدعى

ولا يخلو أن يكون أبو نواس في بعض دعاويه هذه
يتماجن ويعبث على عاداته ، ولا سيما أنه كان في أثناء هذا
كله لا ينسى أنه فارسي من جهة أمه وإن لم يذكرها خشية
أن يهجي بها . فكان يتعاجم في شعره كما سنرى ، وقد
ذهب في آخر أمره إلى هجو العرب أجمعين ، واستن في
الشعر غير سنة شعرائهم الأقدمين

ملتقى التيارات

في ظل الدولة العباسية

لقد كان المسلمون في صدر الاسلام مشغولين بالفتح • ولم تكن شواغلهم الفكرية الى قبيل زوال الدولة الاموية تعدو المنازعات بين الأُسُر الطامحة ، والاختلاف في الامامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد في المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام الا في أواخرها فلما استقر الامر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح الى توطيد دعائم الامبراطورية العظيمة التي آلت اليهم ، فلم يعرف لهم جهاد لنشر الدين وتوسيع حوزة الاسلام ، وانما كانت حروبهم قمعا لفتنة في الداخل أو دفعا لنكت العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج • وفي ظلال هذه الحال من ايثار السلام ومداومة الاحتجان والاستجمام ، تعسدت المرافق وكثرت الارزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرى ألوان المعسرة والتطلع الى بعسدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفارسية والسريانية في المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصره الفرس للدعوة العباسية أن أحلهم خلفاء بنى العباس المحل الرفيع وردوا عليهم اعتبارهم .
لقد أدب للفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيد ولا مسود ، عفى الانقلاب العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب في الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتابا ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمة وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك في أن السياسة الجديدة التي أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعا على امتزاج الحضارات وتزاوج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيرا كبيرا ، وكذلك دخل عليهم منه شر مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظر أهل الهند ، وأداهم هذا كله إلى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عاداتهم في أول أمرهم ، من اصطناع الترف في الملبس والمأكول والاستهتار في الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذي لا بعده كلف يعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية

تعاجم أبي نواس

والامثلة على ذلك في شعر أبي نواس كثيرة لاسيما شعره بعد زيارته لبغداد . فمن تعاجمه في شعره وتعصبه للفرس قوله بعد وصفه دنان الخمر ومجانى الكروم :

تُرأتُ أنوشروان كسرى ، ولم تكن

مواريث ما أبتت تميم ولا بكر

ثم قوله في صفة الغناء الذي يستحبه على الشراب المعتق:

فاسقنيها وغن صــــو تــــا لك الخيرُ - أعجما

ليس في كنعنِ دمنيةٍ لا ولا زجرُ أشاما

وقوله يتمنى لو كان الأكاسرة أحياء وكان نديمهم :

فلو رُدَّ في كسرى بن ساسان روحه

إذن لاصطفاني دون كلِّ نديم

ومثلها هذه الابيات الرائعة في صفة دار من الدور
الفارسية القديمة في ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر
وصحبه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطارفة أبناء فارس،
ذاكرا لايامهم ، ناظرا الى الاطلال الناطقة بحضارتهم، مجددا
بالشرب فيها عهدهم :

ودارِ نداسي عطَّلوها وأدجوا

بها أثرُ منهم جديدٌ ودارسُ

مساحبُ من جرَّ الزقاق على الثرى

وأضغاثُ ريعانِ جَنِيٍّ ويابسُ

حبستُ بها صهي ، فجددتُ عهدهم

وإني على أمثالِ تلك الحابسُ

ولم أدرِ منهم غيرَ ما شهدتُ به

- بشرقي ساباط - الديارُ البسابسُ

أقمنا بها يوماً ، ويومين بعده ،

ويوماً له يومُ الترحُّلِ - خامس

تدار علينا الكأسُ في عسجدية
حَبَّتْهَا بأنواع التصاوير فارسُ
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها
مَكِّي تدريها بالقيسي الفوارسُ
فللخمر ما زُرَّت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلائس

وكذلك احتفاله بالاعياد الفارسية :
يُياكرنا « النوروز » في غلَس الدجى
بنورٍ على الأغصان كالأنجم الزهرِ
يلوحُ كعلام المطارف وشيئه
من الصُّفَر ، فوق البيض والخضر والحر
إذا ما قابلتهُ الريح أوما برأسه
إلى الشَّرب أن سُرُّوا ومال من السكر



إِسْقِنَا ، إنَّ يومَنَا « يومُ رام »	ولِ « رام » فضلٌ على الأيامِ
في رياض ربَّعيَّة بكَّر النورُ	عليها بمسَّهل الغمامِ
فتوشَّت بكلَّ نورٍ أنيقٍ	من فرادى نباتيه وتُؤامِ
فترى الشَّربَ كالأهْلَّة فيها	يتحسَّون خسروى المدامِ

والتيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة
الشمسية عند نزول الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية

« يوم جديد » لانه يؤذن بمقدم الربيع الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التنزه والشرب فى الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، يلذون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ، كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيهم ويظهر للناس أنه منهم

الشعوبية

ولا شك فى أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر فى ذلك . فقد كان للعرب افتخار بأنهم خير أمم الارض قاطبة ، لما نشأوا عليه من الاستقلال والعزة والمنعة فى جزيرتهم ، وللصفات والعادات التى شاعت بينهم من اكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الانساب ، وما كان عليه الاعراب من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اقتصروا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الاسلام فيهم وانتشاره على أيديهم

وقد ثقلت هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتكررة . وزادها ثقلا أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين الى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنت أن ثارت عليه ثائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الاسلامية فغالوا مثل مغالاتهم فى الخط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة فى جاهليتهم ، ويعددون مثالهم من وأدهم الولد خشية الاملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويزرون عليهم جاذب الارض وبدواة العيش ، وذهابهم فى المن من أجل طعام أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا فى الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند

الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان . وفلسفتها ،
وعلوم مصر وسحرها ، وصناعات الصين وفتونها، وحضارة
فارس وترفها . وجعلوا العرب من ذلك أقل الامم شأنًا في
كل شيء ، وأضعفها استحقاقا للتفاخر

واذا ذكرنا أن أبا نواس كان أعجميا من ناحية أمه ، وأنه
على أية حال لم يكن يرجع من جانب أبويه جميعا الى نسب
يصح معه الافتخار باظهاره ، لم يأخذنا العجب من شدة
ضيقة في أكثر أشعاره بتلك العصبية القبلية عند الأعراب ،
واستمرارهم على تفاخرهم الجاهلي بالأصول والأنساب

عاج الشقيُّ على رسمٍ يسائله وعُجبتُ أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لادرِّدُ رُكْداً قلبي من بنو أسدٍ؟
ومن تميمٍ؟ ومن قيسٍ؟ ولِفهما؟ ليس الأعراب عند الله من أحد

بيد أن هذه الروح الشعوبية التي تتراءى في هذا الشعر
لم يكن لها عند شاعرنا دوافع مذهبية ، وإنما الغالب عليها
النوازع الفنية من إثارة لترف الحضارة الفارسية الحاضرة
على تقشف البداوة العربية القديمة ، ومن دعوته الى تجديد
الشعر بما يجعله صورة صادقة للحقيقة الواقعة . وإلى
هذه الشعوبية الفنية يشير الناقد العربي في قوله : « وكان
النواصي شعوبى اللسان ، وما أدري ما وراء ذلك »

بداوة العرب وحضارة الفرس

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس في شعره دائم التعريض
بالاعراب ، والمقابلة بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة
الفارسية في حاضرها وماضيها :

دَعِ الرِّسْمَ الَّذِي دَثَّرَا يِقَاسِي الرِّيحَ وَالْمَطَرَا

وسابور ^١ لمن غبرا	ألم تَرَ ما بنى كسرى
فرا ت تفتيات شجرا	منازه ^٢ بين دجلة وال
ن ^١ عنها الطلح والعشرا (١)	بأرض ^٣ باعد الرحما
يرايعاً ولا وحسرا (٢)	ولم يجعل مصايدها
تراعى بالملأ بقسرا	ولكن حور غزلان
ر ^١ من حافاتها زمسرا	وإن شئنا حثنا الطي
يا كر شر ^١ بها الخسرا	وإن قلنا اقتلوا عنكم
بقفرتها ^٣ ولا وبر (٣)	فذاك العيش لا سيداً

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التي لا تمت الى بدو العرب بسبب ، وانما هي من الحواضر الفارسية وطن « بنى الاحرار » كما شاعت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

إلى خباء ولا عيس ^١ وذبيان ^٢	بلدة لم تصل كلب ^٣ بها طنباً
لكنها لبنى «الأحرار» أوطان ^٢	ليست لذهل ولا سيبانها وطاناً
فما بها من بنى الرعاء إنسان ^٢	أرض ^٣ تبني بها كسرى دسا كره
ولا بها من غذاء العرب حطبان ^٢	وما بها من هشيم العرب عرسجة
آس ^٣ ، وكلله ورد ^٣ وسوسان	لكن بها جلتار ^٣ قد تفرعه
يوماً تنسم في الخيشوم ريحان ^٢	فإن تنسمت من أرواحها نسماً

(١) من نبات البادية (٢) الرابع : نوع من الفيزان ، الوحر مفردة وحررة وهي المعروفة في العامية بالسحلية (٣) السيد : اللئب ، الوبر : دويبة كالسنور

وكان مما يفضيه في العرب أنهم لا يفتنون يتفاخرون ،
الا يكن من العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ،
فبينهم وبين أنفسهم . فهم أبدا في شقاق ونقار من العصبية
القبلية ، لا يجتمع رجلان من قبيلتين حتى يقوم بينهما الفخار
وينتهي بهم آخر الامر الى التعدي والشجار . ويقول
أبو نواس انه من أجل هذا يؤثر صعبة الاعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاض في آدابهم
فالفرس عادى سكرهم محسوم

متوقرين ، كلامهم ما بينهم
ومزمزمين خفـاؤهم مفهوم

ولفارس الأحرار أنفـس أنفـس
ونخارهم في عشرة معدوم

واذا أنادم عصبية عربية
بدرت إلى ذكر الفخار تميم

وعدت إلى قيس وعدت قوسها ،
سبيت تميم وجـمـعـهم مهزوم

وبنو الأعاجم لا أـحـاذر منهم
شرًا ، فمنطق شرهم مزموم

لا يـبـذخون على النديم إذا انتشوا
ولهم إذا العرب اعتدت تسليم

وجميعهم لى - حين أقعد بينهم -

بتذللٍ وتهيبٍ موســــــــومٌ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ،
وستطالعنا ثانية عند وصفنا لحياته فى دار السلام ، فحسبنا
هذا القدر منها هنا

الاشتغال بالنجوم والعلوم والفلسفة

وأما اشاراته الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم
فغير قليلة . ولا غرو فقد كان الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر
المنصور أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ،
وكان معه من المقدمين فى هذا العلم نوبخت المجوسى المنجم
الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم
« أبو نواس » أوثق اتصال . وقد ترجمت الكتب فى الفلك
وهيئاته وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها
وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير يحيى بن خالد البرمكى
مثال اذا سقناه وحده فانه يغنى عن كل مثال بعده . قال
يصف ممدوحه بالسخاء والشجاعة :

صورةُ المشتري لدى بيت ثور الا

يل ، والشمس أنت عند انتصاب (١)

ليس (زاویش) حين سار أمام الح

وت والبدر إذ هوى لانصباب

منك أسخى بما تشحُّ به الأ

فس عند انتقاص درّ الحلاب

(١) لكل من الكواكب السيارة - عدا الشمس والقمر - بيتان ، بيت
ليل وبيت للنهار . عند انتصاب : عند ارتفاع

لا . . و (بهرام) تستقل به العتق

رب بالليل زائداً في الحساب

منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ

ول في العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاویش) Zeus لفظ يوناني وهو المشتري في الكواكب السيارة ، ثم في خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات . وأما (بهرام) فهو المريخ بالفارسية ثم في الخرافة اليونانية اله الحرب

ومثل ذلك قوله يصف الخمر بالقدم :

تخيَّرت ، والنجوم وقفت لم يتمكن بها المدار

وكان أصحاب الفلك يقولون انه كان لدوران الفلك ابتداء كان قبله ساكنا

وفي كلام أبي نواس أيضا المام بمبادئ الطبيعيات التي كانت بسبيل الشيوخ في أيامه . فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في قوله هازلا يستفتي طبيب الرشيد أبا عيسى

جبريل بن بختيشوع في الخمر :

سألت أخى «أبا عيسى» و « جبريل » له عقل

فقلت : « الخمر تعجبنى » فقال : « كثيرها قتل »

فقلت له : « فقدّر لي » فقال وقوله فصل :

« وجدت طبائع الانسا ن أربعة هي الأصل

فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل »

وقوله هاجيا زهير المغنى :

قل : لزهير إذا اتسكا وشسدا :

« أَقِيلُ أَوْ أَكْثَرُ ، فَأَنْتَ مِهْدَارُ »

سَخُنْتُ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودِ >

تى صرت عندى كأنك النارُ

لا يعجب السامعون من صفتى

كذلك الثلج باردٌ حارٌ »

ففى ذلك التفات الى ما كان يروى من أقوال أهل الهند
أن الشيء اذا زاد فى البرد تحول الى الحرارة بدليل أن
الصندل الابيض اذا أفرط فى حكه عاد حارا مؤذيا

وأخيرا يقع القارىء فى شعره هنا وهناك على ألفاظ من
مصطلح المتفلسفة مثل قوله يصف ما صيره اليه تبريح
العشق من النحول والضمنى :

تركت منى قليلاً من القليل أقلّ

يكاد لا يتجزأ أقلّ فى اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى لما أن سمع ذلك
منه قال له : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى » والجزء
الذي لا يتجزأ ، منذ دهرنا الاول نخوض فيه ، ما خرج فيه
لنا من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد »

الزنادقة

ولقد كثر فى الحواضر الاسلامية الشكاك والدهريون ،
ومروجو التعاليم اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من
الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيما المانوية ، فكانوا

يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والاحاد ويفسدونهم .
ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذ لكان بلاء الاسلام
بهؤلاء أشد وأنكى . ومن هؤلاء الدعاة الى الزندقة في البصرة
عبد الكريم بن أبي العوجاء . وقد تصدى له شيخ المعتزلة
عمرو بن عبيد فقال له مهددا متوعدا : « قد بلغنى أنك تخلو
بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستنزله وتدخله في دينك .
فإن خرجت من مصرنا (يعنى البصرة) والا قمت فيك مقاما
أتى فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وامام المعتزلة واصل
ابن عطاء على الهتف بالشاعر الاعمى الملحد بشار بن برد
حتى نفى من البصرة . فلما رجع اليها عند موت واصل سنة
١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيدا عنها الى
أن مات المعتزلى في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع
الزندقة ونشاط دعائها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها
على حربها وكثرة المقال لنهاضتها ، ومن مصنفاته كتاب
فيه ألف مسألة للرد على المانوية ، كما أنه صمد من معتزلة
الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولقب
بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلاف
بصر بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو
من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الابيات التى هجا بها
أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحقى
صورة لما كان شائعا في أوهام الناس عن عقائد المانوية في
ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً »	لا درّ درّ « أبان »
ونحن حُضِرُ رواق الأ	مسير بالنهر وان
حتى إذا ما صلاة (١) الأ	ولى دنت لأذان

(١) صلاة الاولى يعنى بها صلاة الصبح

فَقَامَ ثُمَّ بِهِ ذُو
وَكَلَّمَا قَالَ قُلْنَا (١)
فَقَالَ (٢) : « كَيْفَ شَهِدْتُمْ
لَا أَشْهَدُ - الدَّهْرُ - حَتَّى
فَقُلْتُ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ ! »
فَقُلْتُ : « عَيْسَى رَسُولٌ »
فَقُلْتُ : « مُوسَى نَبِيٌّ »
فَقَالَ : « رَبُّكَ ذُو مَقَّةٍ
أَنْفُسُهُ خَلَقَتْهُ
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى (٣)
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَوَّى
بِعَجْرَدٍ وَعُبَادٍ
وَقَاسِمٍ وَمُطِيعٍ

فَصَاحَةً وَبَيَانَ
إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ
بِذَا ، بَغِيرَ عِيَانٍ ؟
تُعَايِنُ الْعَيْنَانِ «
فَقَالَ : « سُبْحَانَ مَا نِي ! »
فَقَالَ : « مِنْ شَيْطَانٍ »
مُهَيِّمٍ الْمَنَانِ «
سَلَّةٍ إِذَا وَلَسَانِ ؟
أَمْ مَنْ ؟ » فَقُمْتُ مَكَانِي
بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ
بِالْعَصَبِيَّةِ الْمَجَانِ
وَالْوَالِيَّ (٤) الْمَهْجَانِ
رَيْحَانِيَّةِ النَّدَمَانِ

وكانت خراسان كعهدها منبت الكثير من الدعوات ومرتعا
لدعاتها . وقد ظهر فيها في أوائل عهد الخليفة المهدي دعى
من أهل مرو يسمى حكيمًا ، وكان أعور قصيرا مشنوء
الخلقة ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهًا من ذهب

(١) كلما قال المؤذن قولاً رددناه بعده
(٢) أى فقال أبان اللاحق كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا اله
إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » ولستم للامر شهود عيان
(٣) يتمرى بالكفر يتزين به أى يتخذه زينة
(٤) الوالى هو والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس والآخر حماد
عجرد وعبادة وقاسم بن زنقة ومطيع بن اياس

فتقنع به لئلا يرى ، فلقب بالمقنع . وكان يدعى الألوهية فيزعم أن الله خلق آدم وتحول في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول في صورة نوح وهلم جرا إلى أن حل في أبى مسلم الخراساني ومن بعده حل فيه . وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع إليه خلق كثير غلب على عقولهم بالتمويهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطلوا حصاره وضايقوه واستمالوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرب وإياهم السم ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول : « من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار » . وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه . وبلغ من شيوع الزندقة في خراسان وفارس والعراق في أواخر أيام المهدي أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجد في طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر الكلواذي » ليفرغ لهم ويمعن في البحث عنهم في الآفاق لينكل بهم شر تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بحمدويه »

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت إلى مقاومتها بقوة السيف وبقوة الحجّة . وكان المهدي صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفي ذلك يقول المؤرخ المسعودي : « إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمارقونية . فكثر بذلك الزنادقة

وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمرا الجدلين
من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين
ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على
المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين »

زندقة الفكر

• وكان أبو نواس ممن اشتهاوا الكلام وجالسوا المتكلمين .
ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم ان يكن
بإضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض
إيماناً على إيمان ، فان تعرض مثل شاعرنا لهذه الموضوعات
مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة
قد أداه الى شيء من الزندقة • ولقد أقر على نفسه بها في
هجائه لإبراهيم النظام المعتزلي :

قولا لإبراهيم قولاً هتراً غابتني زندقة وكُفراً

ولقد استمر الجدل بين القائلين باختيار الانسان لافعاله ،
وحرية ارادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالقدرية ،
وبين الذين لا يثبتون للانسان فعلاً ولا قدرة على الفعل ،
ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية .
وهو جدال ذو خطر كبير لاتصاله بالعدل الالهي من حيث
التكليف ثم الحساب • ولقد أعيت أبا نواس متابعتهم ، فلم
يلبث أن وقف من البحث عند حد التجربة المادية والمشاهدة
الحسية في قوله :

يا ناظراً في الدين ما الامر ؟ لا قدره صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبور

وحسب القاريء في زندقته شهادة فيلسوف الشعراء
أبي العلاء المعري اذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب

في أن دعبلا كان على رأى الحكيمى (أبى نواس) وطبقته ،
والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة » وفي موضع
آخر منها « وقد اختلف فى أن أبا نواس ادعى له التأله ،
وأنه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان
على مذهب غيره من أهل زمانه » على أن أبا العلاء على عادته
فى التشكك وعدم الجزم يقول فى نفس الرسالة « وذكر
صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء فى طبقة أبى نواس
ومن قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائر الناس مغيبة وانما
يعلم بها علام الغيوب » . وأيا كان الرأى ، فان الواقع أن
شاعرنا لم يكرر القول فى هذه الموضوعات ولم يجعل الكلام
فيها من أغراض شعره كأبى العلاء ، بل تحرز ما استطاع
من أن يذهل فيها عن نفسه عملا بوصيته لغيره :

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْجَمَ فَأُجْجَمَ بِالْجَمَامِ

زندقة المجنون والسكر

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانه من الخروج عن حد
الادب والمساس بحرمة الدين وهو فى حالة سكر أو فى
سياق مجنون

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن
زياد أستاذ الحديث بالبصرة ، اذ أقبل ذات يوم الى مجلسه
وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث ليسألوه عنها . فقال لهم :
« ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة وليمض » .
ف فعل الناس ذلك ، حتى انتهى الى أبى نواس ، فقال :
« سل يا فتى » فقعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنا رونا عن سعيدٍ عن قتاده

عن زرارة بن أوفى أن سعد بن عباد
قال : « من مات محباً فله أجرُ الشهادة »
أترى ذلك صواباً نتبع منه سداً ؟

فالتفت إليه الشيخ مغضباً وقال : « أغرب عني يا خبيث ،
والله لا أحدثك بعد ذلك ، ولا أعرف وجهك » . فقال
أبو نواس كالمحتسج : « والله لا أتيت مجلسك وأنت ترد
الصحيح من الأحاديث »

وعلى هذا النسق أخبار أبي نواس كلها حين يفرط المجنون
عليه . وكذلك أشعاره حين تنازعه نفسه الآثمة إلى الخمر ،
وتدفعه شهوته الفاسدة إلى الاستهتار باللذات :

ألم ترني أبحتُ الهوىَ نفسي وديني ، واعتكفت على المعاصي
كأنني لا أعود إلى معادٍ ولا أخشى هنالك من قصاص
وكذلك قوله مجادلاً :

وملحة باللوم تحسب أنني بالجهل أوثر صحة الشُّطَّار
بكرتُ على تلومني فأجبتها : « إني لأعرف مذهب الأبرار »
فدعى الملام فقد أظمت غوايتي وصرفت معرفتي إلى الإنكار
ورأيتُ إتياني اللذازة والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل علمي به رجس من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أوفى نار

ولقد كان الجمار عند شاعرنا فأسمعه هذه الأبيات ، فلما
بلغ إلى البيت الأخير ، قال له الجمار : « يا هذا ، إن لك
أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في
نفسك ، ودع الإفراط في المجنون ، واكتمها » . فقال

أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خسوفاً • وإن قضى شيء كان » • فتمى الخبر إلى الوزير الفضل بن الربيع ثم إلى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حبس بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طول حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه

الزندقة على سبيل التطرف

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجدل ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو • وقد ألقى أبو نواس في سجن الزندقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، فإذا حماد عجرد أمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم » . ولا شك عندنا في أن القارئ لهذا الحديث يستشعر منه استنكار الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد عجرد حقيقة لا لهو • وأكبر الظن أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تطرفاً • وليس هو في ذلك نسيج وحده ، بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح العصر • وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر في محمد بن زياد :

يا بن زياد ، يا أبا جعفر !	أظهرت ديناً غير ما تُخفي
مَزَنَدَقُ الظاهر باللفظ في	باطن إسلام فتى عَفٍّ
لست بزنديق ولكننا	أردت أن توسم بالطَّرف

الحب الأول والآخر

كل جنس مدفوع الى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية الامرّة التي اودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . واذا كان امر من الامور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على الاحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الاول في نظام الوجود ، وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الانسان الاولى ، ثم لابست اولى شعائره الدينية

فهذه الغريزة عميقة ايما عمق ، وعامة كل العموم ، وهي تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الانسان وان يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها اقل

وهي - بعد - مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما ان المغلوب لا يبرح على كل حال حتى الجذوة كامن القوة

والصبي اذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد يتلفت كالحيسوان المفترس يطلب فريسة يشبع بها هذا السعار الجنسى ويرفه من ضفطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسدية على حالها ، فان كثافتها لتلطف ، وان حواشيها لتتلون بألوان الطيف ،

وتتسربل إعطافها بإبراد الخيال ووشى الشعر . وذلك
أن المرء له الى كيانه العميق السفلى كيان رفيع علوى ،
يقتضى التعاطف بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاج ومزاج .
وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق
تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيّب ما تكون
بالبذل والفداء وانكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك القرار
الارضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولها مطمورة فى
حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة
ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى
كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبة . فاذا
ما ترقى بها الانسان الى الحب كان شوقه دائماً ، فليس هو
بالذى تشبع نهمته وتنقع غلته ، بل لعله مع القرب أبقى
شوقاً وأشد هياماً على حد قول ابن الرومى :

أعانقها - والنفس بعد مشوقة

إليها - وهل بعد العناق تدان

وألثم فاهها ، كي تزول حرارتي

فيشتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذى بي من الجوى

ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادى ليس يشفى غليله

سوى أن يرى الروح حين تمتزجان

وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعى

السليم . فليس فيه انكار الزهاد للجسد وانصرافهم عن
ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق المتصوفة الى ما وراء
الحس وحنينهم الى الاتحاد بالروح والفناء في المحبوب
وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلقاء
المجان في اللهو والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج
وقد بلغ مبلغ الرجال عما للحب الطبيعى بين الجنسين من
غلبة على الحس وسلطان على النفس

نظرة أورثت حسرة

وقد اتفق له أن كان فى مريد البصرة جالسا مع شباب من
آل ثقيف يتنزهون وهو ينشدهم من أشعاره ، إذ مرت بهم
جارية أفرغت فى قالب الجمال ، سوية الخلقة بديعة التقطيع
ميساء معتدلة القوام

فوق القصيرة ، والطويلة فوقها دون السمين ، ودونها المهزول

وقد أبرزت عن وجهه وضاح ، أزهر اللون ، وفاف البشرة ،
حلو الملامح ، عبقرى المعنى . فجعل ينظر مأخوذا الى ذلك
المنظر الرائع والحسن البارع وهى ماضية فى طريقها لا تلتفت ،
قاصرة الطرف ، مسبلة الأهداب . وما زال يتبعها نظره الى
أن غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجت عن حدك الذى
كنت تنتسب اليه يا أبا نواس » يشيرون الى ما عرف عنه
من الغزل بالذكر . فسكت لحظة لا يجيب ، ثم أنشأ يقول :

إني صرفتُ الهوى إلى قمر لا يتحدّى العيونَ بالنظرِ

إذا تأملتَه تعاظمتْ الـ إقرارُ فى أنه من البشرِ

ثم يعود الانكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُّورِ

مباحةٌ ساحةُ القلوب له يأخذ منها أطايبَ الثمرِ

وبقى بينهم ساهما سحابة نهاره ، حتى اذا اظلم المساء

استعجل العودة الى بيته ليخلو الى نفسه . لقد انطبعت
هذه الصورة العابرة في قلبه بخطوط من نور ونار ، ولن
تفارقه في ليل ولا في نهار . وهيئات بعد اليوم أن يطيب له
نوم أو يقر له بال . ان ابا نواس اليوم غير ابي نواس الأمس .
هذا الرجل الواقعي المستغرق في الحب ، والماجن المستهلك
في اللهو والسكر ، والخلو الذي لم يعرف الحب ، قد شغف
اليوم حبا ، وأصبح بخيال هذه المرأة مستهما صبا . فليس
شيء من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم
الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجده بها وحنينه
اليها وهو لا يعرفها . ولقد طال سؤال ابي نواس عنها
وتنسمه لأخبارها وجليّة أمرها ، فلم يقنع بعد اليوم الذي
رآها فيه على خبر منها . فما أحاله ذلك عن قصده ولا
حبس من عنانه وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه في
لجج حبه ودأبه في طلبه :

كما لا ينقضى الأربُ كذا لا يفتر الطلبُ

وتناقل أهل البصرة حال شاعرنا في حبها وأقواله فيها
واكثروا ذكره في كل محفل ومجمع

جنان الجارية

ولم تكن هذه المعشوقة المجهولة الا « جنانا » جارية آل
عبد الوهاب الثقفي ، وقد اتفقت الأقوال على أنها كانت
مقدودة حلوة بديعة الحسن ، أديبة ظريفة عاقلة ، تعرف
الأخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الأقوال على أن
ابا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها

ولقد ذكرته لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن
فيعبثن به ويمازحنه . فخرجن يوما وأبو نواس على غفلة
من ذلك حتى وافينه . فلما رآها كاد عقله يذهب وتحير ،

واقبل وادبر ، فدنت اليه واحدة منهن فقالت : « يا فتى ،
أنت أبو نواس ؟ »

فقال لها ملهوقا : « نعم ، أنا المعنى بمن لا ترثى لشكايتى »
فقالت كالتهكمة : « بالله أنت عاشق ؟ »
فلم يمهلها وبادر مؤكدا : « اى والله ! »
فتضاحكت : « لمن ؟ »

فأطرق مرددا : « لمن لا يعلم ما بى ، ولا أعلم من هو »
فقالت فى خبث : « فأجعلنى رسولا اليه ، فلعن الله أن
يمن على وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هى والله التى
معك » وأوما الى جنان

فانصرفت عنه الى جنان وهى تضحك . فأعلمتها بما
دار بينها وبينه . فأنكرت ذلك عليها ، وقالت : « مثل هذا
الكلب تطمئنه فى » وتولت مغضبة

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ،
وسأل عن اسمها فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضيا
من يومه ، قائما بما وصل الى علمه ، وهو يترنم « تبدت
لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه
الواقعة ، وصور لنا اقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة
البصرة فى أتم زينة ، يحففن بجنان كالتماثيل الحسان ،
وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضت خسات بالعب	و نزلن من عُرف الجنان
راضتُهن من الصبا	كأساً عقدن بها لسانى
أقبلن من باب الرضا	فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحورا كالغزا	ل أميرة إمرار العنان
يمشى بردف كالنقا	يختال تحت قضيب بان
فاذا انجلت فى املى	كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفى ،
 فعاشرهم ونادهمهم توصلاً لجنان . ولعل ذلك عن طريق
 صداقته لابن مناذر الشاعر الذى كانت المودة بينه وبين
 عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى مضرب المثل ، وكان
 أحدهما لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل فى ذلك أنهما
 كانا يسمران أحياناً إلى الصبح ، فإذا انصرف عبد المجيد
 شيعة ابن مناذر إلى منزله ، فإذا بلغه وانصرف ابن مناذر
 شيعة عبد المجيد

العشق فضاح

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ،
 ثم طفق به الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاق صدره ،
 وصار كالمغلوب على أمره يؤوده أن يمسك على ما فى نفسه :

لا يُبْحَنُ حَرَمَةَ الْكُتْمَانِ	رَاحَةُ الْمُسْتَهَامِ فِي الْإِعْلَانِ
قَدْ تَصَبَّرْتُ بِالسَّكُوتِ وَبِالْإِطْ	رَاقَ جَهْدِي فَنَمَّتِ الْعَيْنَانِ
تَرَكْتَنِي الْوَشَاةُ نَصْبَ الْمَشِيرِ	نِ وَأَحْدُوثةً بِكُلِّ مَكَانِ
مَا أَرَى خَالِيَيْنَ لِلْسَرِّ إِلَّا	قُلْتُ مَا يَخْلَوَانِ إِلَّا لِشَانِي

ثم أنشأ يشبب باسمها ويظهره حتى عرف بها واشتهر
 بحبها . ومن إشاراتِهِ إلى اسم « جنان » وصفتها قوله :

لَمَّا تَكشَّفَ عَنِّي أَنِّي كَلِيفٌ
 كَشَفْتُ أَيْضاً لَهُمْ عَمَّنْ بِهِ الْكَلَفُ
 جِيمٌ وَجَدْتُ لَهَا نُونَيْنِ ، بَيْنَهُمَا

— لَمَنْ تَهَجَّيْ اسْمَهَا أَوْ خَطَّهْ — أَلِفٌ

يضمه من ثقيف بعض دورهم
ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

مولاة جنان

واتفق أن تزوجت عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي برجل
من ثقيف يدعى محمد بن خالد (١) فصارت اليها جنان
وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ، وعلى حظ وافر
من الجمال كأخيها عبد المجيد الذي قيل أنه كان أحسن
الناس وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تفرر بها امرأة يقال
لها « سرور » حتى ارتضت الرجل وهو أبو أولاد خمسة ،
ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفؤا ، بالنسبة لجلال قدر أبيها
عبد الوهاب وموضعه من العلم ، وما لأُمها « بانة بنت أبي
العاص الثقفي » من بسطة الثروة ، فضلا عن أنه لم يكن
هوأه فيها وإنما الشره إلى ما في يدها

ولقد شاء لمحمد بن خالد حظه العاثر أن يكون جاره أبان
اللاحقي الشاعر وأن يكون عدوا له ، فنظم في موضوع زواجه
بعمارة قصيدة يهجو فيها ويحذرهما منه ويحفرها إلى
مفارقة :

لما رأيت البرز والشاره	والفرش قد ضاقت به الحاره
واللوز والسكر يُرمى به	من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلتهين لم يتركوا	طبلا ولا صاحب زماره
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبة»	محمد زوّج عمّاره !

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها
محمد بن خالد وجاء في الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن
الثقفي . وقد أخذنا بالقول الأول لأنه يطابق ما جاء في شعر أبي نواس .
وأما الذي ورد في الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن عمارة امرأة عبد الوهاب
فهو خطأ صريح وصحته ابنة عبد الوهاب الثقفي

لا عمر الله بها بيتك
أسود كالسفود ينسى لدى الـ
ويحك افرسى واعصى ذاك بي
إذا غفا بالليل فاستيقظي
ولا رأتك مدركا ناره
تنور ، بل محراك قياره
فهذه أختك فراره
ثم اطفري إنك طفاره
ويقال انه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ،
فعلت في نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ،
فحرم من جهتها مالا عظيما

زوج مولاة جنان

وكان زوج عمارة بخيلا شديد البخل ، حريصا غاية
الحرص ، فيه اثره وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل
الأدب ، فليس لأبي نواس أو غيره من الشعراء اتصال ببابه
أو سبيل الى قلبه . فلا جرم يستولى على عاشق جنان
عارض اليأس وشعور القهر

رأيت هواي سيرته الوجيف

وتحزبني إذا اعترضت ثقيف

فان آتى - وذلك بعد كد -

فدار « محمد » ثم الوقوف

ولقد زاد محمد أن عمد الى بسط لسانه في أبي نواس
والتسميع بمثالبه وعوراتيه . فلم يسمع العاشق الا السكوت
والاغضاء كرامة لهوى جاريته الحسناء :

سأترك « خالدا » لهوى جنان وإن جل الذي عنه أتاني

فقل من بعد ما شئت ، أو زد فقد أمسيت منى في أمان

لقد أغلقت بابك دون ظبي ختمت بمقلتيه على لساني

ثم ان هذه المبالغة من مولى جنان في سترها والفيرة عليها
غيرة لم تؤثر عنه على زوجه ، ألقت في روع الشاعر ان مولاها
انما يفعل ذلك لانه يهواها :

مولى جنان وإن أبدى تجلده

يهوى جنان فيرجوها ويخشاها

مولاته هي « بالمعنى » وحق لها ،

والناس يدعونه « باللفظ » مولاها

الشاعر بالمرصاد

وكانت جنان مع هذا التضيق عليها لا تخلو من الفدو
والرواح لحاجاتها وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة .
وكان أبو نواس راصدا لها حيثما ذهبت . فاذا شهدت
عرسا لم يزل جالسا حتى تنصرف منه فيراها في ذهابها
ومنصرفها . وكان لا يراها الا امتقع لونه ووثب قلبه في
صدره لما يبدو من جمالها في الحلى والحلل حتى لكأنها
العروس :

شهدت جلوة العروس جنان^١ فاستمات بحسبها النظر^٢ ساره
حسبوها العروس حين رأوها فاليها دون العروس الاشارة
قال أهل العروس حين رأوها : « ما دهانا بها سوى سمارة »

ويصور لنا أبو نواس في هذه الأبيات ما هو ملحوظ الى
أيامنا من حرص النساء على عرض جمالهن في الأعراس كأنما
يعارضن العروس ويغairنها . وقد صور الوهم له في هذا
أشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره من جنان ،

ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيدا من جهتها
وعمدا . وىروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه
كان معنا ، هكذا كانت والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها الا اغتنمها حتى فى المآثم .
فلما مات بعض آل عبد الوهاب الثقفى ، أشرف أبو نواس
من دار على منزل الثقفيين وعندهم المآثم ، لىرى جنانا .
وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفى يدها خضاب ،
فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم الا النظر اليها سافرة
الوجه كالبدر ، واستملاح هذا المتناثر المتحدر من دموعها
كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين لها كعيون النرجس ،
واستظراف بنائها المخضوب كالعناب يواقع وهى تلتدم
خدين كالورد

يا قـمـراً أـبرـزه مآثمـه يـنـدب شـجـواً بـين أـتـراب
يـبـكى فـيـذرى الدُّرَّ من نـرجـسٍ وـيـلـطـم الـوردَ بـعـنـاب
لا تـبـك مـيتاً حـلّ فى حـفـرةٍ وـابـك قـتـيلاً لك بـالبـاب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ،
سواء أكان خروجها الى عرس أو مآثم ، وقد لقيها
أبو نواس مرة خارجة الى بعض المآثم بالبصرة وعليها قناع
وشى رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المآثم . فلما
حسرت فى المآثم عن وجهها ذهل الشاعر — كدابه — من
حسنها ، وخيل اليه أن المآثم كله قد ذهل مثل ذهوله .
وقال فيها :

يا مُنسىَ المآثمِ أشـجـانـهم لما أتاهم فى المـزـينـا
حـلّت قـناع الـوشى عن صـورةٍ ألبسـها الله التحاسينا

فاستفتينهنّ بتمثالها فهنّ للتكليف يكينها
حتىّ لئلاّ الوجه أن يَزُدَّهَى عن حزنه مَنّ كان محزونا

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت
شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها
ينظر اليها بمجامع عينيه اذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ،
ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحيانا أقداحا
من النبيذ ليشد قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك
على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوما الى مولاها ، فشكاه الى بعض
أخوانه وسبه عندهم ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما
اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه في هذه الفترة في الملاينة
والمسالة :

مَنّ سَبَّني من ثَقيف	فانني ان أُسَبَّه
أُحِتُّ عِرْضِي ثَقِيفاً	ولطَمَ خَدِي وَضْرَبَه
وكيف يُنْكَرُ هذا	وفيهما لي أَحِبَّه ؟
لأوسَعَنِّ بِحُلِي	عبدَ الحبيب وكَلْبَه
ولا أكون كمن لم	يُوسِعْ لمولاه قَلْبَه
فقام يدعو عليه	ويجعل الله كَحَسْبَه ۱۱

الرضى بالمهانة

وعمد أبو نواس الى رسول أوفدها مرة اليها ، فقالت
جنان لها منكرة : « وأضيعته ! لم يبق لي غير أن أحب هذا
الكلب ؟ » وذكرته بالتقييح والتهجين . فجاءته الرسول
متغبرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

من أراد الوصولَ لم يَجْ لبُّ من الفخر شروطا
قد رأينا عريَّنا نرى يواصلنَ نبيطا

وكان أبو نواس على شفقهِ بجنان وعلى صدق حبه لها ،
دون من كان يشيب بهن من النساء ، غير مجدود منها .
وكانت كلما ذكر اسمه عندها سبته وقالت : « فعل الله
بالمخنت الكاذب في حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه
الاساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبني - ذكرت بخيري -
وأن مودتي كذب ومين -
ولي قلب ينزعني إليها
وتزعم أنني ممدق خبيث -
وأنى للذي أهوى بثوث -
وشوق بين أضلاعي حثيث -
وقوله :

أتاني عنك سبُّك لي فسبني أليس جري بفيك اسمي ! فحسبي
تشابهت الظنون عليك عندي وعلم الغيب فيه عند ربي

وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستطالته ، فاستخذي
وركبه الحب بالدلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت
عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ، فهو لزهد جنان فيه
قد زهد في ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو تخلو حياته
منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة إليها

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فزهدت في الدنيا وصا رت منيتي في زور رمسي
وطويت عيني أن ترا نى عينها ، وأمت جرسى
كيلا يروّع ذلك الـ وجه المليح سماع حسي

جنون الحب

وطال على ابي نواس البلاء حتى لزمه الارق وكاد يجن من
الحب :

تناومتُ جهدي فلم أرقُدِ ونام الخلى ولم يسهر
وأنهض في طربات تهيجُ وألزم طوراً فؤادي يدي
ولقد يهتف به داعي انقل أن يعدل عن هذا العشق الذي
لا مطمع من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعُ جناناً وحبَّها عنك إن كنت عاقلاً
لا تذكر نفسك ال موت إن كان غافلاً
أنت إن لم تمت بها ال مام لم تنج قابلاً
رحمت نفسك القى ذهبت عنك باطلاً

ولكن هيهات أن يعدل عن حبها ، انه كالقضاء لا مفر منه
ولا نجاء . ولقد علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن
امتنع الصبر وعز الرجاء :

أيا ملين الحديد لعبده داود
ألن فؤاد جنان لعاشق معبود
صب حريض مهيض ناء طريد شريد
حران يدعو بليل يا للوحيد الفريد

شخصية جنان

وظاهر من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جوارى
العصر ماجنة وقاح الوجه ، متهتكة ، بل هي كما وصفنا
فتاة ماقلة رزان ، عفيفة حسان ، خفرة قليلة الكلام ، وذلك

كله مع جمال المحيا وحلاوة الملامح ولطافة التكوين والقوام
وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا ينسى يجمع في صفتها
انها نزهة طرف وفتنة قلب ، وأنها ممتنعة لا تلين لمريدها
ولا تقر لما يصنع بها

وجه جنان سَـرَّاةُ بستان مجتمعٌ فيه كلُّ ألوان
مبذولةٌ للعيون زهرته ممنوعة من أنامل الجاني
مَن لستُ أخطئ به سوى نظري يشركني فيه كلُّ إنسان

ولقد أشار الشاعر الى أن لها جمالا « غير معربد » في
ختام أبيات له من أمتع وأطبع ما قاله شاعر في وصف الجمال
في أبدع مجاليه وأعجب معانيه ، وهو ذلك الجمال الذي لا يزال
في عينك يتجدد ، يطالعك منه بمحاسن ليست تنفذ ، وكأن
بعضها ينتهي وبعضها يتولد : ثم هو كلما عاودت النظر اليه
كان بالعود أحمد :

وذاتِ خدرٍ مورَّدٍ	فتسانة المتجرَّدِ
تأمل الناس فيها	محاسناً ليس تنفذ
الحسنُ في كل جزء	منها معادٌ مردَّد
فبعضه في انتهاء	وبعضه يتولد
وكما عدتَ فيه	يكون بالعود أحمد
فاشربْ على وجه بدرٍ	ريَّان غير معربد

العاذلون

« ومضى الشاعر يشيب بها ويلهج بذكرها ، ويشكو في
شعره ما يجد بها وما يلقي في حبها ، ولا مسألة له إلا عنها ،
ولا حديث له إلا حديثها ، حتى عدله الناس في ذلك :

أَمَا يَفْتَنِي حَدِيثُكَ عَنْ جَنَّانٍ وَلَا تُبْقِ عَلَى هَذَا اللِّسَانِ ؟
أَكَلَّ الدَّهْرَ قُلْتُ لَهَا وَقَالَتْ ؟ فَكَمْ هَذَا ! أَمَا هَذَا بِفَانِ ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرها له نافرا
منه ، بل كان يحمده لهم أحيانا ويستأنس به من الوحشة
اليها ، لما يرد عليه في عذلهم من ترديد اسمها والالماس
- بذكرها :

إِذَا مَا عَاذَلِي سَمَّا لَكِ قُلْتُ أُعِدِّ ، كَذَا أُعِدِّ
وَشَبَّ لِي بِاسْمِهَا عَذْلِي وَزِدْنِي ، ثُمَّ زِدْ ، وَزِدْ
نَهَارِي كُلَّهْ وَغَدَاً وَبَعْدَ غَدٍ وَبَعْدَ غَدٍ

اعتذارات وابتهالات

وقد كانت جنان كأحر الحرائر من النساء تتخرج من قول
الشعراء فيها والغزل بها والتصريح باسمها . وقد انتهى
إلى الشاعر كرهها لذلك ، فقال معتذرا :

طِفْلةٌ كَالْغَزَالِ ذَاتُ دَلَالٍ فَتْنَةٌ فِي النِّقَابِ وَالْإِسْفَارِ
أَتَمَّنِّي وَمَا بَكْتَفِي مِنْهَا غَيْرُ مُطْلٍ وَغَيْرُ سَوْءِ انْتِظَارِ
ثُمَّ قَالَتْ : « جَهْرَتَ بِاسْمِي فِي الشَّعْرِ » رَ فَهَا كَسَنَيْتَ فِي الْأَشْعَارِ «
قُلْتُ : « إِنْ الْهَوَى إِذَا كَانَ بِالْصَّ بٌ وَهِيَ قَلْبُهُ عَنِ الْأَسْرَارِ
أَنَا جَارُهُ لَكُمْ قَرِيبٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ يُغْنِي لَدَيْكَ حَقُّ الْجَوَارِ »

ثم استخفه الوجد ولج به الحنين واهتاجه الشوق اليها ،
فصاح صيحته :

جَنَّانُ إِنْ جُدْتَ يَا مُنَايَ بِمَا آمَلْتُ لَمْ تَقْطُرِ السَّمَاءُ دَمَا

وإن تماريت أو تماريت في منمك أصبح بفقرة رما
سمعت من لوأتى على أنفس ال باقين والغابرين ما نيدا

بداية التحنن والانعطاف

وقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واستمالتها ،
فصارت أميل لناحيته بعد نبوها عنه . وقد مرت به امرأة
ممن تداخل الثقفين ، فسألها عنها وألف في المسألة
واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانسأقت الى المبالغة والتزيد
فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز
الأوصال من الفرح فقالت : « قد سمعتها تقول لصاحبة
لها من غير أن تعلم أنى أسمع : ويحك ! قد آذاتى هذا
الفتى وأبرمنى ، وضيق على الطرق بحدة نظره وتهتكه .
ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبى بذكره والفكرة فيه حتى
رحمته . . ثم التفتت فرأتنى فأعسكت عن الكلام »

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم
ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة
موضوعة ، ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

يا ذا الذى عن جنان ظل يُخبرنى

بالله قل وأعد يا طيب الخبر

قال : « اشتكك وقالت : ما بليت به !

أراه من حيثما أقبلتُ فى أثرى

ويُعمل الطرف نحوى إن مررتُ به

حتى ينجلنى من حدة النظر

وإن وقفتُ له كما يكامسني

في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه
حقي لقد صار من همي ومن وطري «

اتصال الرسائل والرسائل

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع
في وجه الرسول عند عودته ولا يمهل ، ليسبق باللحظ
والتوسم الى ما يحمل له ، شراً أو خيراً ، قبل انلفظ به .
ثم انه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليطمئني
ساعة بالنظر الى الموفد اليها . ويغلو به الوهم في ذلك حتى
يجد رسوله عند الاياب من لدنها أحلى طلعة وأجمل نظرة ،
فيقول :

إن تسشق عيني بها ، فقد سجدت	عين رسولى وفزت بالخبر
فكلما جاءنى الرسول لها	رددت شوقاً في طرفه نظري
تظهر في طرفه محاسنها	قد أثرت فيه أحسن الأثر
أخذت مقلتي يا رسول عارية	فانظر بها واحتكم على بصرى

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسائل المختلفة بينهما
غاديات رائحات ، شيخ جليل هو الشيخ محمد بن حفص بن
عمر التميمي (أبو ابن عائشة) وهو وقتئذ يتولى القضاء
بالبصرة ، وكان منصرفاً عن المسجد فرأى - فيما بين دار
أبان ودار حمران - فتى لبقاً ، دمثاً ، عليه ثياب بيض
حسان ، وعلى رأسه قلنسوة مضرية ، واقفاً مع امرأة
يكلما . فدنا الشيخ منه وقل له : « يا هذا ، ان كانت

هذه المرأة منك بسبب ، فقد عرضتها للتهمة ووقفتها موقف سوء ، وان كانت غريبة عنك فحق عليك اتقاء الله وألا ترضى لغيرك إلا بما رضيته لنفسك » . فالتفت الفتى الى الشيخ الذى يخاطبه ، وقال على الفور فى أدب وظرف : « القول ما قلت ، وأنا قابل نصيحتك وغير عائد ان شاء الله تعالى » . فولى القاضى وجعل فى طريقه يفكر فى أمر الفتى فلا يدرى أى شمائله يستحسن ، أسرعة جوابه ، أم حسن مراجعته له بقللة الخلاف ، أم ظرف لسانه . ثم دخل القاضى فى المسجد الجامع وجلس ساعة للقضاء والنظر فى المظالم ، فلم يشعر إلا برقعة فى الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن عائشة ولده . فتناولها ، واذا فيها : « يقول لك أبو نواس :

سَحَرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ	إِنْ التَّقَى أَبْصَرَتْهَا
يَوْمِي إِلَيْهِ وَلَا السَّبِيلُ	لَيْسَتْ هِيَ الْقَصْدُ الَّذِي
كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ	أَدَّتْ إِلَى رِسَالَةٍ
ذَبْ خَصْرَهُ رَدْفٌ ثَقِيلُ	مَنْ سَاحَرَ الْعَيْنَيْنِ يَجْ
يَرْمِي وَلَيْسَ لَهُ رَسِيلُ	مُتَقَلِّدٌ قَوْسَ الصِّبَا
حَقٌّ تَسْمَعُ مَا نَقُولُ	فَلَوْ أَنَّ أُذُنَكَ بَيْنَنَا
مَنْ أَمَرْنَا وَهُوَ الْجَمِيلُ	لَرَأَيْتَ مَا اسْتَقْبَحْتَهُ
لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ »	وَعَلِمْتَ أَنِّي فِي نَعِيمٍ

فضحك الشيخ حين قراها ، وقال لابنه : « قل له انى لا أتعرض للشعراء »

الزيارة . . . وتكرار الزيارات

أما ذلك « النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول » فذلك

أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . . ولقد وقعت هذه
الزيارة وتكررت ، وكانت زوراته لها نهارا كما كانت قصارا .
وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها
بوصفها امرأة - لا مجرد أنثى . فاذا بالماجن الفاسق قد
صار عاشقا على طراز الميمين العذريين ، يبرأ من الريبة
مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم في الحب من وطر إلا
الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث في تخرجها أن
وجهت إليه : « قد شهرتني فاقطع زيارتك عني أيا ما لينقطع
بعض القالة » . ففعل محزوننا ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا . وبيننا - حين نلتقى - حسن
فليس يُقذى عيناً معاينة له ، وما إن تمجَّه أذن
ويحَ ثقيف ماذا يضُرُّهم إن كان لي في ديارهم سكن
أرَّيب ما بيننا الحديث ، فان زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن
وقنع بالرسائل يدسها إليها ويحتال على إبلاغها لها ،
فكان يبالغ في تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التأنق في عبارتها ،
ليختلب الحبيبة ويسترضيها . وكان من ذلك ما لا بد أن
يكون من كثرة المحو والاثبات فيها . فقام بنفسها - في
سوء ظنها به - أن كثرة التغير في رسائله حاصل من أنه
ليس يصدر عن صدق شعور وطبع ، ولكنه التلفيق وتزوير
القول . وفي ذلك يقول :

غَضِبْتُ لِحَوْ فِي الْكِتَابِ كَثِيرٍ

قالت : « أراد خيانتى وغرورى

كتب الكتاب على خلاف ضميره

فالحو فيه لكثرة التغير »

المسير إلى الحج

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورات أن تصحبها ولا تتركها . وترامى الخبر إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد ابن زياد المعروف باليؤيؤ ، فقال شاعرنا للذي أخبره : « أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي ان اقامت على عزيمتها ، وما على من هذا » . فظن مازحا في أول أمره . ولكنه سبقها إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحج عمره ، وما أحدث عزمه إلا خروجها ولقد شوهده في الحج وقد أحرم . فلما جنه الليل على هذه الأرض المباركة وقد ازدحمت بالمسلمين من اقطار الأرض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الايمان ، واهتزت نفسه في جنح هذا الليل لنجوى الغيب ، فسمع يلبي بشعر وهو يحدو به ويضطرب :

إلهنا : ما أعدلك مليك كل من ملك
ليكَ ، قد لبيتُ لك وكل من أهل لك
ليكَ إن الحمد لك والملك ، لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجدات في الفلك
على مجارى المسالك ماخاب عبيد أم ملك
أنت له حيث سالك لولاك يا رب هلك

يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك ليكَ إن العز لك

والملك ، لا شريك لك والحمد والنعمة لك

وكانت سبيحة من سبجات الروح التي لا يخلو ان تطرق
النفس البشرية مهما يكن من ضلالها أو انكارها في لحظة من
لحظات الاتصال بالقوى الغيبية العلوية

عند الكعبة

فلما كان الطواف ، لقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم
وتقدمهم ، فاذا بهم يرونه خلف امرأة ، ولا يكادون يرونه
الا خلفها . فلم يدروا من هي . فلما صاروا الى الحجر الأسود
فاذا بالمرأة تلثم الحجر ، واذا هو قد لثمه معها حتى الصق
خده بخدها في زحمة الخلق . وتفطنوا لها فاذا هي جنان .
فلما انصرفا ، لقيه ممن راقبوه محمد بن عمرو الجمار (ابن
أخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له : « ويحك ! في هذا
الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك
حياء من الناس ! قد رأيتك وما صنعت اليوم » . فقال :
« يا أحمق ! وحسبت قطع المهامه والسباسب والرمال الا
للذي حجبت له واليه قصدت ! » . ثم انشأ يقول :

وعاشقين التفّ خدّاهما عند التّشام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأتيا كأنهما كانا على موعد
لولا دفاعُ الناس إياها لما استتفقا آخر المسند
ظلّنا كلانا سائر وجهه - مما يلي جانبه - باليد
نفعلُ في المسجد ما لم يكن يفعلُه الأبرارُ في المسجد
وعاد أبو نواس من حجة هذا غير المبرور ، يردد قوله :
ألم تر أنني أفنيتُ عمري

بمطلبها ، ومطلبها عسير

فلما لم أجسد سبياً إليها
 يقرّ بني ، وأعيتني الأمور
 حججت ، وقلتُ قد حجت جنان^١
 فيجدهني وإياها المسير

بعد الحج فتور وقطية

وتابع أبو نواس بعد عودته إيّاد الرسل إلى جنان ، حتى
 أعيتها الحيلة فيه ، فاستنظرتة إلى أن يخرج زياد (١) أخو
 مولاتها في سفر من أسفاره ، ولم يكن ذلك إلا تعلاّ منها .
 فقد خرج زياد ، وانقضت الأيام في أثر الأيام ولم توف له
 ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر الثقفين كل يوم
 على حد قوله :

أطوف بقصركم في كل يوم كأن لقصركم خَلِيق الطواف

ولكنه متطلع متنظر على غير جدوى :

جفن عيني قد كاد يـ قطُّ من طول ما اختلج

وفؤادي من حرٍّ جبـ لك قد كاد أو نضج

خبّريني - فدتك نفـ ي وأهلي - متى الفرج ؟

كان ميعادنا خرو ج زياد ، وقد خرج

أنت من قتل عائد بك في أضيق الحرج

وكانت جنان لايزال يساورها ويتمثل لوهمها ما هو
 متواتر شائع من عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جد
 الحياة واسترساله مع المجانة والهزل . فكرهت بعد هذا

(١) الأغاني في الصفحة ١٢ من الجزء ١٦

كله أن تكون لمثله . ورجعت الى عاداتها من مخافاته وسوء
ملاقة رسله ، وعادت تتهمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر
التأذى من تهتكه فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتم غيظه :

وا بآبي من* إذا ذُكرتُ له وطولُ وجدى به تنقصنى

لو سألوه عن وجهه حجته فى سبىلى ، لقال : « يعشقنى » ا

نعم ، إلى الحشر والتناد ، نعم أعشقه أو ألف فى كفى

لا تثنى - ويك - عن محبته ما دام روى مصاحباً بدنى

أصيح جهرًا لا أستسر به عنفى فيه من يعنفنى :

« يا عشر الناس فاصمعوهُ وعُوا ان جناناً صديقةُ الحسن »

ولقد غضبت جنان لذلك غضبا شديدا ، فأطالت هجره

ومصارمته ، وأصر الرجل على حبه لها وتشبيبها بها :

أنا أهواك ، فموتى كمدا إنى لستُ بسال أبدا

بأبى - لا غمك الله - اصبرى إلزى المهجران وارضى لى الردى

ورآها المسكين ذات ليلة فى منامه ، وكأنها قد صالحته ،

فاهتاج شوقا إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقى فى المنام طيفانا

عاد لنا الوصل كما كانا

يا قرة العينين ما بالنا

نشقى ويلتشد خيالنا

لو شئت - إذا حسنت لى فى الكرى -

أتمت إحسانك يقظانا

يا عاشقين اصطلاحا في الكرى

وأصبحا غصبي وغضباننا

كذلك الأحلام غرارة^١

وربما تصدق أحيانا

غيبه جنان عن البصرة

وأخيرا أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيتت النية وزوجها على أن يغيبا جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان أخ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ، ولكنه صبت خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكمين في ظاهر البصرة فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر والتاع قلبه ، وانطوى منه على شجو ناصب ، فكان لا يرى إلا هائما على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي مية (١) محمد بن خالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصى عن جنان ، وما كان ذلك ليخفى على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أَسْأَلُ الْقَادِمِينَ مِنْ حَكَمَانِ : « كَيْفَ خَلَقْتُمُو أَبَا عُثْمَانَ ،

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبي عثمان) ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبامية هو نفسه زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧ من أن أبامية (أمية) اسمه خالد ، وللشاعر بن منذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره - وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور) في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان

وأبامية (١) المهدَّب والمأ
فيقوان لي : « جنانٌ كما سرَّ
ما لهم - لا يُبارك الله فيهم -
مول والمرتبجي لريب الزمان ؟ »
لك من حالها ، فـلـ عن جنان »
كيف لم يُغنِ عندهم كتمانى ؟

وما من ريب في أن أبا نواس كان حقيقاً بأن تنصلح حاله
ويستقيم طبعه وتحمد سيرته ويصنع دينه ، لو أن علاقته
بجنان في عقلها وكمالها قد دامت له ، وأدت الى نتيجهتها
الطبيعية من اقترانه بالمرأة التي يحبها ، والاستقرار بالحياة
الجنسية في كنفها ، وطلب ما فيه الرفع له في عينها . ولكنها
هي وجميع من حولها - لسوء حظه وتعسه - لم يفهموه
حق فهمه ، فلم يصدقوا أن جنان منه في موضع عشق ولا
عشرة ، أو أنه يخلص يوماً في حب المرأة

وحسبنا في الدلالة على الاثر الطيب الذي كان لهذه
العلاقة في صلاح سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنان خلعتُ عن رأسى عنانى
وركبت ما أهوى وكم أجفو مقالةً من نهانى
وخرجتُ أخبط سادراً لم أُغنَّ عن حبِّ الغوانى

وقد تبين أيضاً أثر ذلك واضحاً في شعره ، حتى أخذ
عليه بعضهن سكوته عن تصوير محاسن الاجسام ونعت
الخمير الى وصف الجوى وشكوى الهجر :

وقائلة لي : « كلُّ شعرك في الهجر ا »

فقلت : « برغمى حيث سار به شعرى

تشاغل بالهجران ممن أحبه

وقد كانت يحلو بالمحاسن والخمر »

الهجرة

فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من
مطلبه ، وانقطع منه رجاءه ، لم يطق المقام في البصرة ، فأزمع
الرحيل ، وكان برغمه التوديع :

كفى حزنًا ألا أرى وجهَ حيلة

أزور بها الأحباب في حكام

وأقسمُ لولا أن كنتال معاشره

جنانًا بما لا أشتهى لجنان

لأصبحتُ منها دانيَ الدار لاصقًا

ولكن ما أخشى - فديت - عدائي

فواحزننا حزنًا يؤدي إلى الردى

فأصبحُ مأثورًا بكل لسان

أراني انقضت أيام وصلى منكمو

وآذن منكم بالوداع زمانى

ونزح أبو نواس يطلب ود الملوك في بغداد . ويخطيء من
يحسب هذه الدنيا الزاخرة الشائقة التي هو مقبل عليها
بالتى تذهله عن جنان . وحسبنا في ذلك اعتراف الشاعر
نفسه : « وخرجت إلى بغداد وفي نفسى بقايا من حبها ،
ما فارقتنى ولا تفارقنى إلا مع خروج روحى »

في طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد
اسودت في عينه مجاليها ، وضافت به مفانيها . ففادرها
مدعيا الكره لها والتنكر لأهلها . ولا شك في أنه كان يجد
للذكرى وجدا عظيما ويحس لها مضا أليما ، حتى بلغ في
طلبه النسيان أنه عمد إلى المراسلة بينه وبين خاصة
الأخوان في البصرة فقطعها :

قولا « لعباس » لكي يدري	لغلام عاكٍ قدوة المصير :
« فيم الكتابُ إلى » تخبرني	بسلامة - في البطن والظهر -
فاقطع بسيف صارم ذكره	أسباب كتب بيننا تجري
فان امتنعت فلا مواترة	حسبي كتاب منك في الدهر
واجمع حوائجك التي حضرت	عند الكتاب إلى - في سطر «
ما ذاك الا أنني رجل	لا أستخف صدقة البصري

على أنه غير قمين بالقارئ أن ينخدع بهذا القول في حالة
السخط واليأس فقد عاد الشاعر يحن إلى موطنه في البصرة
ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها ، ولكنه كان يتكلف
الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلها بالشرب والقصف
في الخانات والمتنزهات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلى ، وأقوت الكشبُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءةِ والد
منازلُ قد كُعمرُتها كينعاً
في فتية كالسيوف هزَّهمُ
ثم أراب الزمانُ فاقتسموا
لما تيقنتُ أن رَوْحتهم
أبليتُ صبراً لم يُبلاه أحدُ
قطر بل مرّبعي ، ولي بقري ال
ترضعتي درّها ، وتلحنني

مِنى ، فالمرّ بدان ، فالالببُ
بن عفا ، فالصحن فالرحبُ
حتى بدا في عذارى الشهبُ
شرحُ شباب وزانهم أدبُ
أيدي سبا في البلاد فانشعبوا
ليس لها ما حيت منقلب
واقسمتني مآربُ شعب
كخرخ مصيفُ ، وأحى العنب
بظلالها ، والهجير يلتهب

فاذا أضفنا الى هذه أبياتا له أخرى يقول فيها :

أيا من كنت بالبع
ومن كانوا موالى
ومن قد كنت أرعاه
شربنا ماء بغداد
رة أصنى لهم الودّ
ومن كنت لهم عبدا
وان ملّ وان صدّا
فأنسانا كم جدّا

لم يبق موضع للشك في أن شاعرنا نزع من البصرة لأنه
خاب في حبه وفجع في قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب
أن بدت في عذاره ومفرقه رواعى الشيب ، ولما يزل في شرح
الشباب وريعانه

الامام بالكوفة

وأخذ الشاعر في طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما
عاج به من البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن

يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك التي مرف سوادها وجاس أرباضها وشرب في دساكرها وحاناتها ، واطلع طلع ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . أنه اليوم لأشد حاجة إلى السكر ، وأفسح عذرا في التلهي والقصف ، تفرجا عن همه وتخففا من يأسه القاتل وهربا من نفسه . ولقد لقي صاحبنا في الكوفة من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمناذمتهم ، حتى ختم قصيدته الرائية في ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفان » مذهبا وعدمت عن ظرفائها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيبها ، كثيرة المياه والرياض ، وكانت تقوم في معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان في انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، وإلى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعتقاتها من الخمر ، وهى من قديم « المشهورة في الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الاعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب للخمر النصرانية لارتياض النصارى باعتصارها وخذقهم له ، فضلا على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الاقبال أنه تأدى بالرهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لبيع خمورها ليريدوها . فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والمجان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، في الآنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض

والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع
النواقيس وأنغام التراتيل والقراءات في المزامير والأناجيل ،
وغير ذلك من التلاحين البيعية

ولقد عاج أبو نواس في طريقه الى بغداد على حانات هذه
الآديار التي كانت كثيرة حول الكوفة وفي ظاهرها ، فكان
يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الأدمان عليها
والعب فيها :

وقهوة عتقت في دير شماس

تفتّر في كأسها عن ضوء مقباس

مزاجها دمع حاسيها ، فأى فقى

لم يبك اذ ذاقها من حرقة الكاس

سلم ، ولكنها حرب لذائقها

يا حبذا بأسها ما كان من باس

وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى
يفتر عنه ، ولا يبرح يناشده أن يحث المدامة اليه ويديرها
مرات بعد مرات عليه . وانه ليتبادر للخاطر انه كان يشرب
لا للشرب ولذته ، وانما تعجلا لسكرته والتماسا لذهول
العقل وغيبة الفكر :

ردّا على الكأس انكما لا تدريان الكاس ما تجدى

لو نلتما ما نلت ما مزجت الا بدمعكما من الوجد

وظاهر من هذا انه قد عكف على الكأس حين عكف ليفرق
الهم في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى
أمسه . فهل تراه أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟
هيهات ، بل كانت هذه المجالس التي جلسها للشرب في الآديار

على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع التطريب
والألحان أدعى للذكر وأورى عنده لئلا الوجد ، حتى لتغلب
الحال عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجا عن القصد
متجاوزا للحد ، يحسبه منادموه عريضة منه لخفاء سره
وجهلهم لأمره :

إذا شاكك ناقوس^١ وشجوا الناي، والعود^٢

وغوديت بريق الخمر^٣ ر مجتته العناقيد^٤

تطربت إلى الالف^٥ فقالوا أنت عريضة^٦

وهل عريضة مكروب^٧ قريح القلب ممدود^٨

ولقد كان من الدواعي المحببة للشرب والمفرية به موقع
الأديار بين الجنان الموثقة والغدران المترققة ، أو على الروابي
العالية المطلة على الأودية الناضرة والمياه المتحدرة والسهول
الفسيحة . ولا شك في أن رقة الهواء ، ورواء المنظر وحسن
المستشرف ، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة ، والعطور
المتزجة المشوبة ، من شأنها أن تشجذ الحواس وتنبه مراكز
العصب ، فيتحرك الحب في قرارة كل قلب . واذ لم يكن
لشاعرنا المهجور أمل في الحب ، فقد انصرف إلى الشرب في
هزة طربه واهتياج مشاعره . وهذه أبيات له في دير
مريونان - ويقال له أيضا عمر يونان - في الأتبار على ضفة
الفرات ، وهو دير كبير عليه سور محكم ، ورياضه غناء
فيحاء :

وغرد الراهب في العُمُر^(١)

وجاءك الغيث على قدر^٢

تضحك عن خضر وعن صفر^٣

آذنك الناقوس^٤ بالفجر

وحن مخمور إلى الخمر^٥

واطردت عيناك في روضة^٦

(١) الكنيسة

يا عاقد الزنار في الحصر بحرمة الحانة والدير (١)
هاتِ ألقى تعرف وجدى بها واكثن بما شئت عن الحمر

الرهبان في تقشفهم وتعبدهم

ومن الديرة (٢) التى عاج بها أبونواس بظاهر الكوفة على بعد
يومين منها دير حنة ، وهو دير قديم فى بقعة كثيرة الرياض
والبساتين ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمى القائم ،
وبه بيوت صفار يسكنها الرهبان الذين لا قلالى لهم وتسمى
هذه البيوت بالأكيراج . ولعله من أدل الشواهد أيضا على
ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد
بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير
وكل همه أن يسكر من معتقات دنانه ، وينظر الى طبائه
من الانس وغزلانه ، على حد قوله :

يا دير حنة من ذات الأكيراج

من يصح عنك فانى لست بالصاحي

رأيتُ فيك طباء لا قرون لها

يلعبن منا بألباب وأرواح

فانه مع ما كان من سكره ومجونته ، لم يلبث أن رآه وأخذ
بقلبه هذا المشهد المائل لعيانه للزهد فى متاع الحياة ،
والاعراض عن الدنيا والانتقطاع لله . فقد جعل - وبه شعور
مخامر من العجب الذى لا ينقضى والارتياح الذى لا يدرى
كنهه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم
القنوت والتقشف ، وشغفهم التهجد والتعبد ، وأذابهم
طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر اليهم

(١) فى الأصل « الفهر » وهو عيد لليهود أو معبدهم

(٢) أنظر « الحان الحان » للمؤلف

الا أشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوقة رؤوسهم ، عليهم من
ثياب الرهبانية مسوح خشنة بالية ، وقد عزفوا في مطالب
العيش عن كل زيادة ، وحرموا على أنفسهم من أسباب
الترف أهون وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشرّبون من الغدران
بغير آنية اغترافا بأيديهم ، فاسمع اليه يقول فيهم :

دع التشاغل بالذات - يا صاح -

من العكوف على الريحان والراح

واعدل الى فتية ذابت نفوسهم

من العبادة ، نحف الجسم ، أطلاق

لم يبق منهم لرائيم اذا حصـلوا

- حذار ما أخوفوه - غير أشباح

تلقى بهم كل محفوة مفارقة

من الدهان ، عليه سحق أمساح

لا يدافعون الى ماء بآنية

الا اغترافاً من الغدران بالراح

ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه ، ومن تحقق
معناها في حسه ، أن عاد اليها بمثل هذا الوصف من البحر
والقافية :

دع البساتين من آس وتفاح

واعدل - هديت - الى ذات الا كبراح

اعدل الى نفر دقت شخوصهم

من العبادة الا نفض - وأشباح

يكرروا نواقيساً مرجعة

على الزبور بامساء واصباح

غلبة المجون على الشاعر

على ان الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعودده أمثاله من السكر والمجون ، فترآه بعد أن عدل — في هاتين المقطوعتين — عن الريحان والراح والآس والتفاح ، الى ذكر العبادة والصلاح ، ووصف العابدين انضاء النسك كالأشباح ، ينتقل الى ما كان عليه من التغنى بالخمرة المعتقة التي يتحفون بها الضيوف في القعاب الكبار ، والى التغزل بالراهب الفتى الذي دار بها عليهم وقد صار بعد السكر ينعت نحوه بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسح الرهبانية ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نغمة شعره الى وتيرتها ، وتعود حياته الماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تُحفثهم

بكل نوع من الطاسات راح

يسقيكها مدمجُ الخمرين ذو هيف

أخو مدارع صوفٍ فوق أمساح

عمارة الأديرة وزينتها

ولقد كانت الأديار كثيرة في العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تحصنها الأسوار الشاهقة والأبواب المفرطة في الكبر من حديد مصمت أحياناً ، وكان منها ماتعلوه القباب المنيفة ترى من بعيد . وكان لبعضها زينة في داخلها

نهاية في البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوقة الجدران
بأشكال النقوش والفصوص المذهبة ، مقروشة أرضها
بصنوف الرخام المجزع والمرمر المسنون الممرد لا تستقر
عليه القدم ، وفي سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ،
وقد علقت في هياكلها القناديل من فضة ، واتخذت لها
الصلبان من ذهب . وفي أركانها وآزاج طيقانها الدمى
محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفي سقوفها وحيطانها صور
مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفي الصلندر
صورة المسيح وعلى رأسه أكليل الشوك ، أو صورة مريم
في غاية من اتقان الصنعة « كلما ملت من ناحية كانت عينك
إليها »

ولقد كانت الأكواب التي يسقى بها ضيوف الديرة من
ذهب أحيانا ، وكان منها الأملس الغفل ، ومنها المنزل المحفور
بأنواع الرسوم الدينية . ولقد شرب أبو نواس خمرة ذهبية
اللون في أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تحاكيأ كشيها	أيهما - للتشابه - الذهب
هما سواء ، وفرق بينهما	أنهما جامد ومنسكب
أملس ، وأمثالها محفورة	صوّر فيها القسوس والصلاب
يتلون أنجيلهم ، وفوقهم	سماؤ خمر ، نجومها الحب

شعائر النصارى في شعر المسلمين

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء المجان أمثال أبي
نواس لحانات هذه الأديار أن كثر في أشعارهم ورود أسمائها
والتغنى بخمورها ووصف بساكناتها . وقد ألوا في تلك
الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وأن كانت
لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذي يزعمونه عن ليلة
الماشوش وما يجري فيها من إباحات واستهتار بالمحارم

مما لا يقره دين ولا يصح في عقل . والى هذا الوهم يشير
أبو نواس في أبيات له في تفضيل بهروز الفارسي على الغلمان
النصارى :

نقى في الولادة عن مشوش^١ رخصه النصارى للقسوس
وحسبنا لبيان المام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر
النصرانية في أعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصاف لأبي
نواس :

كأثما الكأس اذا صُفقت^٢ قنديل^٣ قرى^٤ وسط^٥ محرابه

وله في دوران الخمر في ابان تعتيقها في الدنان :
أقامت حقة في قمر دن^٦ تغور وما يحس لها لهيب^٧
كأن قراتها في الدن تحكى قراءة القس^٨ قابله الصليب^٩
وقوله متغزلا :

عيناى تشهد أى عاشق^{١٠} لكم يا دمية صور وها فى المحاريب^{١١}
واخيرا هذه الأبيات في المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه
عبد يشوع بن ماري سرجس :

بعمودية الدين العتيق بمطر^{١٢} بليطها ، بالجائليق (١)
بشمعون ، يوحنا ، بمى بمارى سرجس^{١٣} القس^{١٤} الشفيق
بمات^{١٥} مريم ، ويوم فصيح ، وبالقربان ، بالخر العتيق
بميلاد المسيح ، يوم ذبح^{١٦} ، وباعوث^{١٧} (٢) لتأدية الحقوق
وأيام السعانيين (٣) المبدى وشعلة النصارى في الطريق

(١) المطر بليط مأخوذ عن اليونانية metropolite : المطران ، والجائليق ،
من اليونانية كذلك catholicos : مقدم الاساقفة

(٢) الباعوث : عيد للنصارى كالاستسقاء للمسلمين

(٣) السعانيين أو الشعانيين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع

بهيكل أسقف ، وبما يليه ،
 وبالصلبان ترفعها رماح^{هـ}
 وبالناقوس في البيع اللواتي
 بداود وما يتلون منه^{هـ}
 بقلايات دومة ، بالمقاسي
 ورهبان الصوامع في ذراها
 بكنس الروم والشامات طر^{هـ}
 وبالمثلب اللجج^{هـ} تزين نحر^{هـ}
 وبالحسن المركب فيك^{هـ} الا
 لقد أصبحت زينة كل عيد^{هـ}
 ونشر البند والعلم الخفوق
 تلالا ، حين تومض بالبروق
 تقام بها الصلاة لدى الشروق
 بترجيع^{هـ} يردد في الخلق
 ومذبح ديرها الحسن الأنيق
 مقامهم على جهد^{هـ} وضيق
 بقسططينية البلد السحيق
 وبالزئار في الخصر الدقيق
 رحمت تحيرى وجفوف ريق
 ودين^{هـ} ، مع جفائك والعفوق

وغير ذلك كثير من الاقسام التي تشتمل في مضامينها
 على جملة أوصاف لشعائر النصارى وسننهم ومشاهد
 مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبداتهم . وفيما ورد منها
 الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصال
 معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلعاء والمتماجنين لأيام أعيادهم
 النظر الى محاسن فتيانهم وفتياتهم في الحللى والحلل في غدوهم
 الى البيع والكنائس ، والتعرض لهم أحيانا بالغزل والعبت
 على انه يحسن أن ننبه هنا الى أن ما يرويه أبو نواس
 وأمثاله من خلعاتهم ورقاعاتهم في الأديار في عصابة من
 الفتاك الخلعاء ورفقة من الشطار ، انما ينصرف الى الخانات
 والبساتين التي حولها ، كما هو واضح جلى من شعره :

بدير بهراذان لى مجلس^{هـ} وملعب^{هـ} وسط بساتينه

رحتُ إليه ، ومعى فتية^١
 بكل طلاب الهوى فاتك^٢
 حتى توافينا الى مجلس^٣
 والرجس الغض لى ورده
 وجىء بالذن^٤ على مرفع^٥
 وافئصد الأكل من دننا
 وطاف بالكأس لنا شادن^٦
 يكاد من إشراق خديه أن
 فلم نزل نسقى ونلهو به
 حق غدا السكران من سكره
 زوره يوم سعادينه
 قد آثر الدنيا على دينه
 تضحك ألوان^٧ رياحينه
 والورد قد حُفَّ بنسرينه
 وخاتم العليج على طينه (١)
 فانصاع فى حمرة تلوينه
 يديه مس الكف من لينه
 تختطف الأبصار من دونه
 ونأخذ القصف بآيينه (٢)
 كالميت فى بعض أحاينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا فى طيزناباذ بين الكوفة
 والقادسية ، ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ،
 مخوفة بالكروم والشجر ، وفيها المعاصر والحانات ، وكانت
 أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا أيضا
 معدول عن الدير الى بستان صاحب الدير (وهو العمار أى
 الديرانى ، من العمر وهو الدير)

يا حبذا مجلس^٣ قد كان يجمعنا

بطيزناباذ فى بستان عمار

وحبذا أم^٨ عمار ورؤيتها

خمارة أصبحت أما الخمار

(١) العليج: الرجل الضخم الشديد من العجم (٢) الآتين: القانون معربة

تَعَلُّنا بِمَدَامِ قَدْ تَنَاوَلَهَا

رَيْبُ الزَّمَانِ وَعَصْرُهُ بَعْدَ أَعْصَارِ

لَمْ نَخْطُ مِنْ خَدِّهَا شِبْرًا إِلَى أَحَدٍ

وَلَمْ نَزَلْ بَيْنَ جَنَاتِ وَأَنْهَارِ

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه إلى بغداد ديرا أو عمرا ،
ولا قلاية أو كرحا ، إلا ألم به ، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات
الحيرة وطيز ناباذ والأنبار وغيرها ، مرددا اشتياقه لها وما
يعتاده من الحنين إليها ، تجديدا لمجالس شربه في حاناتها
وملاهيته في بساطينها

في أحضان الطبيعة

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، إذ جلتها
أجمل جلوة في عينه ، وقربتها إلى قلبه ، وخلطتها بحسه ،
فظهر أثر ذلك جليا في شعره . على أن هذا الحب للطبيعة
لم يرتفع عنده إلى وقفة التعبد في هيكلها والخبوت لروعتها
والشعور الديني بحضرتها والاتحاد الصوفي بروحها ، وإنما
كان قصاراه أن جعله دائم الصبوة إلى طيب المجالس في
رياضها ، سريع النشوة بعطورها وأطيابها ، متطربا إلى خرير
جداولها وأطياريها ، منجذب العين إلى أنواع ريحانها
ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئا طلبه للشرب
في أحضانها كأنما يرتضع الخمرة من لبانها . ومعنى ذلك
أنه وإن يكن عاشقا من عشاق الطبيعة لم يكن عشقه إلا من
نوع العشق الحسى لا يعنى بغير الملموس المحسوس .
فبالطبيعة عنده - كما قدمنا - ليست معبدا ، ولكنها مرتع
موتق للهو واللعب ، ومجلس مأنوس للسكر والطرب

طلب العزاء

وهنا يتشاغل هذا المحب المخيب عن هوى «جنان» بهوى

المرد والقيان . وهنا نلقى هذا الشاعر العالم يغالب بالشراب
أحزانه ويطفئ به وجدده وأشجانه ، لو صبح أن اللذة تغنى
غناء الحب ، وإن الخمر تطلق النفس من عقال الهم ، وتفرغ
برد العزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم
المحزون :

لا تخشعن لطارق الحدثان

وادفع همومك بالشراب القاني

أومأ ترى أيدى السحائب رقت

حلال الثرى بطرائق الريحان

من سوسن غص القطاف ، وخزّم

وبنفسيج ، وشقائق النعمان

وجنى ورد يستيك بحسنه

مثل الشموس طلعت من أغصان

سحراً وبيضاً بختين ، وأصفرأ

وملوثاً بيدائع الألوان

كعقود ياقوت نظمن ولؤلؤ ،

أوساطهن فرائد العقيان

ومن الزبرجد حولهن ممثلاً

سمطاً يلوح بجانب البستان

فادا المعلوم تماورتك فسلها

بالراح والريحان والنسيمان

من

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاردة وختم مطافه ،
وأقبل لأول عهد الخليفة هارون الرشيد قادما على دار
السلام ، بغداد التي اختطها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر
حواضر الاسلام

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلاّت نفسه جلالاته ،
وشبعت عينه فتنة ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت
أسوارها المكيّة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ،
كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندق ، ومن ورائه
مسناة (١) بالآجر والصاروج (٢) متقنة محكمة عالية .
وكان دخول « أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي
أتى منها - أي من باب الكوفة - فإذا هو منه في دهليز عظيم
أزج (٣) معقود بالآجر والجص ، في جوف السور الخارجي
الكثيف ، وكان عليه باب كبير جليل المقدار لا يغلّقه ولا
يفتحه الا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز الى
رحبة مفروشة بالصخر طولها ستون ذراعا مسورة غير
مستقوفة ، وهي مادة في انحراف وازورار ، تشق
براح الفصيل الدائر بين الاسوار الخارجية والاسوار

(١) السد يبنى في وجه السيل (٢) الآجر ما يبنى به من الطين
المطبوخ (الطوب الأحمر) - الصاروخ الكلس (الجير) وأخلطه
(٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

الداخلية ، وفي حائطي هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان في جنبتيها يشرعان (١) الى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى في صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الاعظم الذى عليه تقوم الابراج العظام والشرفات المدورة . ومضى القادم المدهوش يخترق الدهليز الثانى فى جوف السور الداخلى ، والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، يدخل منهما الفارس بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة وهى ذات طاقات (٢) معقودة فيها كواء (٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل باب ساج كبير من فردين ، وفى جنبتي الطاقات بين كل طاقين غرف للمرابطة

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا - كسائر أبوابها الاربعة - تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويصعد اليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض ، وفى داخلها الديابة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره على القباب الاخرى

وانتهى أبو نواس من هذه الاسوار والدهاليز والطاقات والابواب التى تحرسها الجند ، الى داخل المدينة العظيمة . فاذا داخلها لا يكذب ظاهرها فهى من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العمارة ، وفوق ما يقدره حسابان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هى على أشد الزحام بالناس أخلاطا من سائر الاجناس . ولعل أعظم ما شاقه منها وارتاح اليه فيها ذلك الطابع الاعجمى الذى يطبعها ويغلب عليها فى كل شىء

(١) ينفذان اليه (٢) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء (٣) جمع كوة

قصور بغداد

أما مبانيها وقصورها ومصانعها فهي على مثال من الهندسة فيه الفارسي والبيزنطي وقد حوطوها بالاسوار ، وجعلوا في سطوحها القباب مرفوعة على العمدة الدقاق كأنها معلقة في الهواء • وزينوا جدرانها وسقفوها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان • وكتبوا الآيات بالذهب المجسم ، وحفروا المناظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دوائر الابواب والقمريات • وعمدوا في صنع أطرها الى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين • وتأنقوا داخل القصور في اتخاذ الجنات وتنسيق المتنزهات يجلبون اليها بدائع الاغراس وغرائب الاطيار من أطراف الارض ، ويسوقون اليها الجداول ويبنون السقايات • ويحتفرون البرك تجري فيها الزواريق اللهو والغناء في ليالى القمر

وكان من هذه القصور ما يرجع عهده الى المنصور مثل « قصر الذهب » الذي بناه وسط بغداد المدورة ، وفي صدره الايوان تنعقد فوق مجلسه الاعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس وفي يده رمح • وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة راسية الأساس لوطد ملك بنى عباس • ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان • وقد جاءت تسميته تشبيها له بجثة الخلد ، لما يحويه من عجيب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الانفس وتلد الاعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه • وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار • وكان القصران متقاربين على الضفة الغربية من النهر • وكان بحداثتهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقل عنهما

عظمة وأبهة • ثم غير هذه وتلك قصور عدة على جانبي دجلة
للأمراء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا
الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهي لا تحصى كثرة
وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » فى بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » فى روضة تخرقها الأنهار بالسفن
خلالها الورد لدى زجس معتق الآس فى غصن
نيط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطن والبرنى (١)
يا حبذا النوار نواره مختلف البهجة فى الحسن
من أصفر یرنو إلى أحمر وأبيض فى اللون كالقطن

كما أشار إلى ما كان فى قصر المهدي من حسان الطواويس
فى قصيدة فى باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند
أنعت ديكاً من ديوك الهند

أحسن من طاووس « قصر المهدي »

ومن اشارته لقصور الأمراء قوله فى إحدى خمرياته وقد
دعاه الأمير عيسى بن أبى جعفر المنصور ليقیم عنده أسبوعاً
فى القفص فى أرباض بغداد :

يا طيبتنا بقصور القفص مشرقة فيها الدساكر والأنهار تطرد

غلبة الحضارة الفارسية

ولقد كان شيوع اللباس الفارسى فى بغداد يكاد يكون
عاماً بعد سنوات من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه
بتغيير الزي الرسمى فى سنة ١٥٣ • فكانت طوال القلانس
بدل العمائم لرجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطيالس

(١) الطن : رطب أحمر شديد الحلاوة • والبرنى : نوع من التمر، معرب

السود للعلماء والمشايخ ، والاقبية لسائر الرجال ، والقرايطق
والمناطق للغلمان والجواري

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهرا في كل
ناحية من نواحي الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ،
حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة

على أن أبا نواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم
سروره بها ، فلم يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور
أو غيرها من آيات الحضارة وعظمة الملك في بغداد في عصرها
الذهبي أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذي شغله الشغل
كله واستولى على نفسه وملك عليه مشاعره ، هو هذه الروح
الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة في بغداد ، تجري
في حلبتها منطلقة في أعنتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ
قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو والسرور ، وميل للطرب
والغناء ، واستجابة لدواعي الغزل . وهي روح متفقة مع
ديانتهم الزرادشتية القديمة التي جعلتهم يعبدون الطبيعة في
مظاهرها الحسية دون استغراق في الغيبيات كغيرها من
الديانات

الشاعر يدعو الى التجديد

ولقد كان لهذه الحضارة التي أنغمس فيها الشاعر أعماق
الآثر في نفسه ، وهي كذلك معكوسة أصدق الانعكاس في
شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون
ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على
الاطلال التي تعفت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى
الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذكر غسراب البين الذي
أذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسوم ،
وتشمم ما حولها من العرار والشيخ والقيصوم . وذلك مع
كون هؤلاء الشعراء من طبقة المحدثين ، وقد بعدوا عن ذلك
كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادي

وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة
ال عمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقري المطبوع
بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة
للسعوبية ، وبما كان يتذوقه ويتملاه في هذه الحياة المترفة
من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره
ترجمان عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد
على ذلك أنه لم يسلك طريقه في خشية المتهيبين وتسـتر
المهريين ، بل رفع علم الثورة نهارا ودعا دعوة المصلحين
جهارا ، فحق له أن ينزل من التاريخ الادبي منزلة المجاهدين
وأن يعرف له في الادب العربي فضل المجددين

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على
أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعاريير المحدثين ،
وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

لا جف دمعُ الذي يبكي على حجرٍ

ولا صفا قلبُ من يصفو الى وتد

كم بين ناعِثٍ خمرٍ في دساكرها (١)

وبين بالكِ على نُؤى (٢) ومنتضدا



إنخلُ على الدار بتسليم

فما لديها رجعُ تكليم

والعن غراب البين بغضاً له

فانه داعية الشوم

(١) الدساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي

(٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، والمنتضد مجتمع الرمل

وُعِجْ إِلَى الزَّجْسِ عَنْ عَرْفِجٍ (١)
وَالْأَسْ عَنْ شَيْحٍ وَقَيْصُومٍ
وَاعْدُ إِلَى الْحَرِّ بِأَبَانِهَا
لَا تَمْتَنِعْ عَنْهَا لَتَحْرِمَ

□

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ (٢)
وَتَبْكِي عَهْدَ جَدَّتِهَا الْخَطُوبُ
وَحَلَّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ (٣) أَرْضًا
تَخْبُ بِهَا النَجِيَّةُ وَالنَّجِيبُ
وَلَا تَأْخُذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا
وَلَا عِشًا ، فَعِشْهُمْ جَدِيبُ
ذَرِ الْأَلْبَانَ يَشْرِبُهَا أَنْاسُ
رَقِيقُ الْعِيشِ عِنْدَهُمْ غَرِيبُ
بَارِضُ كَنْبَتِهَا مُعْشَرُهُ وَطَلْحُ
وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبِيعُهُ وَذَيْبُ
إِذَا رَابَ الْحَلِيبُ فَبِلْ عَلَيْهِ
وَلَا تَحْرَجْ ، فَمَا فِي ذَاكَ حَوْبُ (٤)

(١) العرفج والشيح والقيصوم مما ينبت في سهول البادية ، وهي جميعا طيبة الرائحة

(٢) الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة (٤) الحوب : الاثم

فأطيبُ منه صافيةٌ شمولٌ (١)

يطوف بكأسها ساقٍ أريبُ

الى أن يقول :

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الدروبُ

والشاعر في هذا جميعه شديد الوطأة ، عارم الجراءة ، مستجمع الحملة . وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من اشارات عابثة فكهة الى بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقات ، كالاشارة الى مطلع امرئ القيس في معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله - وهي اشارة اصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضرين من أبناء البلد عندنا

قل لمن يبكي على رسم دَرَسٍ واقفاً ، ماضراً لو كان جلس ؟

التجديد في العشق والغزل

ومن طريف ما يأخذه أبو نواس على البدو ويذكره لهم في جملة معائبهم ، ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل بالمذكر ، وذلك في قصيدة مطولة يذم فيها الاعراب ويعرض بعشقتهم ويزري بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفي ختامها يقول :

أما والله لا أشراً (٢) حلفتُ به ولا بطرا

لو أن مرقشاً حىً تعلق قلبه ذكراً

كأن ثيابه أظلم ن من أزراره قماراً

(١) الشمول من أسماء الحمر (٢) الاشر : فرط المراح

ومرّ يربد ديوان الـ خراج مضمخاً عطرا
بوجه سابري^(١) لو تصوّب ماؤه قطرا
وعين خالط التفير في أجفانها حورا
وقد خطت حواضنه له من عنبر طورا
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة
والخمر تجديده جميعه ، فإن صدقه في الترجمة عن نفسه
وتصوير بعض نواحي عصره لا شك أنه شفيعه

خلفاء بني العباس ومذاهبهم في الفن واللهو

ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس الى بغداد وأخطرها
بذهنه، هو بعينه الذي اجتذب سائر أهل الفن والادب اليها
منذ ابتداء عصر المهدي . فقد كانت أيام أبي العباس السفاح
وأبي جعفر المنصور أيام تأسيس للملك وارساء لقواعده ،
بالقضاء على الامويين الاعداء ، والضرب على أيدي الطامعين
من الاولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه
طلبوا الراحة وانبسطت نفوسهم للهو . واللهو في ذلك
الحين حاضر قريب ، شديد السحر والفتون ، بما دخل عليه
من فنون الفرس والروم

في خلافة المهدي

فاذا الخليفة الذي عهدناه في شخص السفاح والمنصور
متشددًا مقتصدًا مؤثرا للجد منصرفا الى مجالس العلم ، قد
بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من اللهو ،
وينفق المال على الملهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعا ،

(١) الثوب السابري : هو الرقيق الناعم

وكانوا في أول أمره يغنونه من وراء سستارة ، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم ، ومن قوله في ذلك « انما اللذة في مشاهدة السرور والدنو ممن سرنى ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ » وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشربه لا تخرجاً بل لانه لا يشتهي . وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحب شيء اليه الخوض مع خاصة ندمائه في الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالي بهن ، وله في الجوارى والقيان أخبار وأشعار

وسواء أصبح نظم المهدي لهذه الاشعار أو لبعضها أم لم تصح له كلها ، فانه كان يهتز للشعر ويجزل العطايا للشعراء . فكثر منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها . واجتمع ببابه نفر غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبد الله بن الحياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة وسلم الحاسر . ويكفى في الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لاهله في ذلك العهد من آفاق ، وما در عليهم من الارزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الادب قبله . فقد روى لنا الراوون أن قد اجتمع مطيع بن اياس وحمام عجرد ويحيى بن زياد يوما في أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ، وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، وقال في ذلك مطيع بن اياس :

حبذا عيشنا الذي زال عنا حبذا ذاك ، ثم لاحبذا ذا

زاد هذا الزمان عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلنا بغداداً
بلدة تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلاً، وأخرب ذو العر ش بأعمال أهلها كلواذا

ولقد انقطع أبو دلالة الشاعر الاسود الكوفي للخليفتين
أبى العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدمانه ويستطيبان
مجالسته ونوادره، فلم يبلغا فى عطاءهما ما فيه غناء ومقنع،
حتى قال أبو دلالة حين أحدث المنصور لبس القلانس الطوال
كلمته الشاكية المتهكمة :

وكنا نرجى من إمام زيادة فجاد بطول زاده فى القلانس

ولما أن أنفذ الخليفة عزمه فى قائد الثورة العباسية الأكبر
أبى مسلم الخراسانى فقتله ، أنشد الشاعر الخليفة فى محفل
من الناس قصيدة عصماء ، فقال الخليفة مظهراً فى هذه
المناسبة غاية التطول والانعام ، متعمدا اشعار القوم بما
للخلافة من عظمة وسعة ومقدرة : «احتكم» . فقال الشاعر:
« عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما أنصرف الناس
وخلا به قال : « ايه ، أما والله لو تعديتها لقتلتك »

ولقد استقل المهدي نفسه وهو ولى للعهد عطاء المنصور
لابراهيم بن هرمة حين أنشده قصيدته اللامية التى مدحه
بها فكلمه فى ذلك : « يا أمير المؤمنين ! قد تكلف فى سفره
اليك نحوها » . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ،
فالذى لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفى طباعه

حتى اذا كان عهد المهدي خرجت حياة الفن من الضيق
الى السعة . اذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء ،
لا يفتأ يتسخرى على أصحابه ومنادمية ووفوده من أهل الادب
والشعر ، فيأمر لهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارهة ،
وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الالوف من الدراهم تحمل

الى منازلهم معجلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشي من حياته

وما نالها في الناس من شاعر قيلي

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الحاسر يأتي باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ، ولباسه الخز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الاثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه

ثم ان المهدي لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يسنى الجوائز ويجزل النفقات لاهل الفن ، حبا في الفن . ومن ذلك ما يرويهِ حماد الراوية من أنه دخل على المهدي يوما فقال له : « أنشدني أحسن أبيات قيلت في السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأنشده حماد أبياتا للأخطل . فقال له : « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به . فاذا ذكرنا أن المهدي لم يكن صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بجمال الفن في ذاته .

في خلافة الرشيد

فلا عجب اذا رأينا شاعرا أبا نواس وقد أتم علمه واستوفى فنه وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر الى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ، ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . واذا كان قد فاته عطاء المهدي ، فلا يفوته عطاء ولده الخليفة الاشهر هارون الرشيد . وما حل الفتى البصري مدينة بغداد ورأت عيناه عظم أبهتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر بها من أسباب النعيم واللذة لمن

أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حز في قلبه الحرمان وتمنى أن يكون له شأن غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فإذا بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوى الحاجة ظاهري الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش في هذه الجنة الناضرة الزاهرة

عند ذلك أدركت هذا الفتى الماجن عزة النفس ونزت في رأسه سورة الأنفة ، وعصفت في صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا وحظه من اللذة ، ولو تآدى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة

يقوم سواء ، أو مخيف (١) سيال

بكل فتى لا يستطار جناحه إذا نوه الزحفان (٢) باسم قتيل
لنخمس (٣) مال الله من كل فاجر

أخى بطنه للطيبات أكل

الوزراء البرامكة

ولقد كانت أمور الخليفة كلها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة ، أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ، ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويسقطون ، ويحكمون في كل شأن بما يرتضون . وهم أهل لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأي وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر
(٣) نأخذ خمس المال

حسن السياسة ، ومصانعة الحوادث والناس ، وكانت دورهم بالشماسية - في الموضع المعروف بسويقة خالد - مناط الآمال ومحط الرحال لطلاب المعالي والاقدار الرفيعة من ذوى الطموح والهمة ، كما كانت سوق العلم لديهم قائمة نافقة ، وبضاعة الادب عندهم رائجة رابحة . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الامر عليهم ، ليملأ يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له الى الخليفة سببا

الشيخ يحيى البرمكى

فنظم شاعرنا فى كبيرهم يحيى بن خالد البرمكى الوزير الاكبر ، أكمل أهل زمانه معرفة وأدبا ، وأحكمهم سياسة ورأيا مع الجود وسجاجة الخلق وشرف الخلال ، أشعارا قصارا على نحو ما كان ينظم المتصلون ببابهم لانتجاع فضلهم :

سألت الندى : « هل أنت حرٌّ ؟ » فقال « لا ،

ولكننى عبدٌ ليحيى بن خالد »

فقلت : « شراءٌ ؟ » قال : « لا ، بل ورائةٌ »

توارثنى عن والد بعد والد »

ولعل الشاعر قد ذكر نسبه الفارسي ، وتحركت فيه نزعته الأعجمية ، وهو يخاطب الشيخ البرمكى العظيم الهيبة الذى ينمى الى بيت من أمجد البيوت الكسروية ، وينتسب الى سدة النوبهار المعظم بين المعابد الفارسية ، فنظم قصيدته البائية التى مرت بالقارىء ومطلعها :

لا أحط الحزام طوعاً عن الهذوف^(١) دون ابن خالد الوهاب

وتكلها رموز وإشارات يستحبها الفرس لأنهم أصحاب

(١) الزق

نجوم . وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بها
على أن الشيخ البرمكي في وقاره وسننه المتقدمة كان
بعيدا عن منادمة الخلق أمثال أبي نواس . وكان أميل الى
الاجتماع بأهل البحث والنظر من متكلمي الاسلام وغيرهم
من أهل الآراء والنحل

الفضل بن يحيى البرمكي

وكان الذي ينوب عن يحيى في جلائل الاعمال ولده
« الفضل » ، والناس يسمونه من أجل ذلك « الوزير
الصغير » . وكان الابن لأبيه ، رجل همة وجد وكفاية ونزاهة ،
الا أن فيه كبرا شديدا يظهر عبوسة في وجهه وخيلاء في
مشييته . ولكنه كان عظيم السخاء ، واسع العطاء . فكان
الذين يجتمعون ببابه من الشعراء عددا كبيرا حتى قال
بعضهم :

ما لقينا من جود « فضل بن يحيى » جعل الناس كلهم شعراء

وكان أبو نواس في جملة الشعراء الذين قصدوا اليه
بمدحهم ، وكان بين هؤلاء من انقطعوا لذلك واختصوا به ،
فلم يكن يدرك في هذا الباب شأوهم ويلحق بآثارهم .
ولقد أنشده أبو نواس يوما قصيدة قدم لها بالنسيب على
عادة الشعراء المادحين فقال أبياتا مطلعها :

ذكرتم من الترحال أمرا فغمّنا فلو قد فعلتم صبح الموت بعضنا

وأصغى الفضل ، وكان ذا بصر بالشعر . فلما انتقل
الشاعر من النسيب الى المديح وقال في تخلصه :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد

هواكم لعل الفضل يجمع بيننا

تملئ الأمير وهمهم معقبا عليه « ما زدت على أن تجعلني
قوادا ! »

فبهت الشاعر ، وانفتحت عينه على سقطته التي أعماه
عنها ما تعودته من الانطلاق وقلة التحرج . ثم استدرك
ملتصبا المخرج : « أصلح الله الأمير ! انه جمع تفضل ،
لا جمع توصل »

وأبدى الأمير الموافقة . ومضى الشاعر في مديحه . فأمر
له الفضل بخمسمائة دينار . وانصرف أبو نواس ، ونفسه
غير طيبة لا باللقاء ، ولا بالعطاء ، فقد كانت عطايا البرامكة
لغيره أكثر . وكان الغالب على الفضل بن يحيى من الشعراء
سلم الحاسر ، أو الرابع كما كان يحب أن يسميه . وقد
كثرت مدائح هذا الشاعر فيه وعظم احسان الفضل اليه
حتى قال أبو العتاهية :

إنما « الفضل » لـ « سلم » وحده

ليس فيه سوى « سلم » ذرّك

وكان الخليفة الرشيد يعرف للفضل بلاءه وحسن سياسته
منذ أن ندبه لقتال يحيى بن عبد الله العلوي الذي اعتصم
في بلاد الديلم وأعلن خروجه على الخليفة واشتدت شوكته .
فاستنزله الفضل من معقله من غير اراقة للدماء ، آخذا في
ذلك بسياسة بنى برمك التقليدية . وهي سياسة تهدئة
وتلطيف لحدة الخلاف بين عنصرى بنى هاشم : العباسيين
والعلويين . وقد أشار الى هذا المعنى شعراؤهم فقال مروان
ابن أبى حفصة يمدح الفضل :

ظفرت ، فلا شلت يد برمكية

وتفت بها الفتى الذى بين هاشم

وقال غيره فى هذه المناسبة نفسها :

عصمت حكومتها جماعة هاشم من أن يجرّد بينها سيفان

وكان من معرفة الخليفة لمقدرته على حسم الفتن وضبط

الامور أن قلده المشرق كله من النهر وان الى أقصى بلاد الترك .
 وشخص الفضل الى عمله في سنة ١٧٨ وودعه الرشيد
 والاشراف والوجوه وساروا معه ، ومدحه الشعراء فوصل
 وأعطى وأفضل . وبلغ ما أجاز به الشاعر مروان بن أبي
 حفصة مئة ألف درهم غير ما وهبه من دابة فارهة ، وكسوة
 فاخرة ، وجارية كاسية حالية . ولبت الفضل في خراسان
 عاما وبعض عام أصلح فيها الامور ، وأزال عقابيل الجور ،
 وبني الحياض والمساجد والرباطات ، وفرق في الناس
 الأموال ، وأرضى الجنود وأقواد بالأعطيات وأخذ البيعة
 بولاية العهد لمحمد الأمين ثم انصرف في آخر ١٧٩ هـ عن
 خراسان الى العراق . فتلقيه الرشيد لما ورد ببستان أبي
 جعفر ، وجمع له الناس وأكرمه غاية الاكرام . وأمر الخليفة
 الخطباء بذكر « الفضل » والتنويه بمحامده ، وأمر الشعراء
 بمدحه فكثرت المادحون له . ولم يدع شاعرنا أبو نواس هذه
 الفرصة ليظفر بالعطايا والهبات ينفقها في حاجاته وملذاته .
 فاشترك في المديح مع الشعراء ، وألقى به في الدلاء .
 ورأى الفضل أن يكون جزاء هؤلاء على قدر استحقاقاتهم
 وموضعهم من الاحسان والاجادة . فأمر أحمد بن سببار
 الجرجاني أن يميز أشعار الشعراء ، فمشى اليه جماعة منهم
 داود بن رزين الواسطي ومسلم بن الوليد وأبان اللاحقي ،
 وأشجع السلمي ، فسألوه أن يضع من شعر أبي نواس
 ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما أن عرض أبو نواس شعره
 على الجرجاني ، رمى به وقال : « هذا لا يستحق قائله
 درهمين » فهجاه أبو نواس :

بما أهجوك ؟ لا أدري لسانى فيك لا يجرى

إذا فكرت في قدر ك أشقت على شعري

واتصل الخبر بالفضل فأبى طبعه هذا الاسفاف في

الخصومة ومجافاة الحق في الحكومة ، وصرف الجرجاني عن
تميز الشعر ، ووصل أبا نواس وأرضاه
وكان للفضل أحيانا طرب الى المذاكرة في الادب ، وكان
يدعو اليه الرواة والشعراء في بهو له قد فرش كله بالسمر .
وهو في صدر المجلس ، وعليه دواج (١) سمر ، وبين
يديه كانون من فضة في وسطه أثفية (٢) من ذهب ، وعلى
الأثفية قدر تحته العود المندلى . وأمامه صينية من فضة ،
على أسد رابض من فضة ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ،
والصينية والاسد قطعة واحدة . وفي الصينية ابريق زجاج
فرعوني ، لا يبلغ حسن فنه وصف ولا يفي بقدره ثمن ،
والى جنبه كأس تسع رطلا . ويقف على القدر خادم فزري،
والخدم خارج البهو جلوس . ولقد حضر الاصمعي امام اللغة
وراوية العرب مجلس الفضل وصوره لنا على عادته تصويرا
دقيقا مفصلا . فوصف لنا ما أمر به الامير له من خلعة كاملة
من جبة وكساء بحواشيه وجوارب، وكلها خز مبطن بسمر .
ثم انتقل الى خوانه فوصف الرقايات وألوان الاطعمة في
صحاف الفضة وبخاصة ما قدم اليه من طعام طيب المذاق
في جام فضة خسروانية وقد نثر عليه السكر ، وأغلب الظن
عنده وان لم يحققه انه كان منح خصيان الضأن الذي يذبح
في مطبخ الامير كل يوم . وبعد أن تملأ الاصمعي من المأكـل
ورفع الخوان جاءه الطست فأعطى أربعة أصناف من الاثنان،
فلما مسح يديه جاءه خادم بيده ملعقة مملوءة غالية فتغلف
بها . ثم أن الفضل أخذ الكأس بيده فصب فيها من النبيذ
قدر ثلثيها ثم ملأها بالماء وشرب . ثم صب مثل ذلك
للاصمعي ، فبدره وصيف ، فقال الامير : « تنح ، هذا يوم
منادمة الأدب » وأراد الاصمعي أن يستهل المنادمة بأبيات

(١) ثياب من فرو الحيوان المعروف بالسمر

(٢) الاثفية الحجر توضع عليه القدر ، وقد كان من الذهب في مجلس
الفضل

في الشراب لأبي نواس فقال : « جعلت فداك » قال
الشويعر . . . » فلما علم الأمير أنه يعني أبا نواس، راجعه :
« بل قل الشاعر الذي قلما طلب فكره القوافي » يعني أنها
تأتي طائفة إليه ، ثم عقب على ما أنشده الأصمعي من خرياته
بقوله : « لله دره ، ما أبينه لدر الوصف ، في هذا الشعر
وغيره . وان كان فتح له الباب ورسم له الوصف ، لقد
أحسن الاشتقاق . ودرر معانيه في هذا الباب كثيرة ، وان
كنت أكره أن أشتغل به عما أنا إليه أميل » . ثم قال :
« والله لولا أن مجالسته سخر يسب به عند العامة لكان
ثالثنا في هذا اليوم . ولقد كنت على بر له ، فحالت بين ذلك
الاشغال من يوم ناداني مطلقا من رسيس الهوى الذي يجده
في حب جنان فقال :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد

هواك لعل الفضل يجمع بيننا »

وهزت الاريحية الأمير الجواد عند ذكره الشاعر فنادى :
« يا غلام ! على بمنصور الخازن » فلما وقف بين يديه قال :
« أبعث الى الحسن بن هاني بمنديل فيه خمسة آلاف درهم »
وكان أبو نواس لا يجسد عوضا عن عطاء الفضل بن يحيى
البرمكي ، فهو ما برح أكرم بني برمك أجمعين . والبرامكة
كانوا وقتئذ أكثر عطاء من الخليفة نفسه لاستبدادهم بالملك ،
 واحتجبتهم للاموال . وكانت قصورهم تناصى قصوره في
الجانب الآخر من الدجلة وهي تعج من سهيل الخيول وازدحام
الناس . فلا عجب اذا مضى الشاعر على سنته من مدح
الفضل البرمكي مع ما كان من بوادر التغير على البرامكة
حتى كانت نكبتهم في سنة ١٨٧ هـ . وكان آخر ما مدحه
به قصيدة وضعها بمناسبة الدار الباذخة البنيان التي
استفرغ الفضل مجهوده في بنائها ، وانتقل اليها في ذلك
الحين أو قريبا منه ، فقال أبو نواس في مطلعها :

أَرَعَ البلى إن الخشوع لبادر عليك وإني لم أخنك ودادى

ولما سمع الفضل هذا المطلع الموحش الحزين انقبض قلبه،
فلما انتهى الشاعر الى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو بنى برمك من راضحين وغاد

تطير الأمير البرمكى منه واشسماز حتى كلع ، وظهرت
الوجمة عليه . ثم قال : « نعتت الينا أنفسنا أبا نواس » .
ولقد صحت الطيرة فما كانت الا مديدة ، لا تجاوز الاسبوع
فى قول بعضهم ، حتى أوقع الرشيد بالبرامكة

جعفر البرمكى

ولقد كان أبو نواس فى أول أمره يؤمل أن يكون أنفق
بضاعة عند جعفر البرمكى منه عند أخيه ، لما كان عليه
الفضل من الانصراف للمهم ، وإيثار الجذ وقلة ولعه بالشراب
حتى كان يقول : ولو علمت الماء ينقص من مروءتى ما شربته
أبدا ، وأما جعفر فقد كانت فى أخلاقه سهولة ، وكان طروب
النفس طلق الوجه ظاهر البشر ، مقبلا على متعة الحياة يهوى
السماع ، ويلذ مجلس الشراب مع حضور البديهة وخفة
الروح والفصاحة واللسن ، يجمع الهدو والتمهل والجزالة
والحلاوة . وكان لا يخلو بمنزله يوما الا ويهين له مجلس
الشراب ، فيلبس الحرير ويتضمنج بالخلوق ، ويحضر نداماه
الذين يأنس بهم ، فيجلس اليهم وقد لبسوا للشراب واللهم
السياب المعصفرة حمرا وصفرا وخضرا . فيقضون ايلتهم
يسمرون ، وقد دارت الكاسات وخفقت العيدان . وكان
الخليفة أكثر ما يكون أنسا بجعفر ، ويستوحش لغيبابه
حتى لم يكن يصبر عنه ولا يطيب له مجلس بغير محضره
ولا يتم له السرور بدونه ، وقد جعل اليه أمر داره ليكون
له ألزم نداماه وسماره . وكان الفضل رضيع الرشيد، ومع

ذلك كان الرشيد يسمى جعفرا « أخى » من دونه ، ويدخله معه فى ثوبه . وقد بلغ من حبه له أن صير له خاتم الدولة وكان الى الفضل . وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شئ . حتى كان أبوه يحيى الشيخ الحكيم المجرب يعتب على جعفر دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته

وليس أبلغ دلالة على ما كان لجعفر من الدالة على الرشيد والتمكن عنده والغلبة على أمره من قضائه - وهو فى مجلس المنادمة خاليا فى بيته بين شرابه وندمائه وقيانه - فى أمور تخص الخليفة فى أهله وحرمة ، قضاء المستيقن الواثق من مكانته ، المتحقق ألا تخالف له رغبة ولا ترد له كلمة

حكى ابراهيم بن المهدي :

استأذن جعفر ذات يوم أمير المؤمنين فى الخلوة غدا . ودعانى وخاصة ندمائه للبكور اليه فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه . فقدمت اليها موائد الأطعمة عايتها من أفخر الطعام وأطيبه ، فلما فرغنا من الأكل وغسلنا أيدينا ، تخلعت علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق ، وانتقلنا الى مجلس الطرب . ومدت الستائر ، وغنت من ورائها القينات أعذب النساء ، فظللنا بأنعم يوم . وبلغ من مداخلة الطرب جعفرا أن دعا بالحاجب وقال له : « ان أتى أحد يطلبنا ، فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه ! » . فاتفق بالأمر المقدر أن عم الرشيد « عبد الملك بن صالح » قدم بالفعل علينا فى ذلك الوقت . وكان ضاحك جلالته وهيبته ورفعة ، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه ، حتى كان الرشيد اذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه . فلما قدم الأمير الشيخ الجليل ، دخل به الحاجب علينا ، فلما رأناه رمينا ما فى أيدينا ، وقمنا

اجلالاً له نقبل يده ، وقد ارتعنا وخجلنا وزاد بنا الحياء .
فقال الشيخ : « لا بأس عليكم ، كونوا على ما أنتم عليه » .
ثم صاح بسلام فدفع له بردائه ، ثم أقبل علينا ، وقال :
« اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم » فما كان أسرع أن
طرحنا عليه ثياب خز معلم ، وقدمنا اليه موائد الطعام
والشراب . فطعمهم وشرب الشراب لساعته . ثم قال :
« خففوا عني ، فإنه شيء والله ما فعلته قط » . فتهلل وجه
جعفر . ثم التفت إلى عبد الملك فقال له : « جعلت فداك ،
قد علوت علينا وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي
وتخيط بها نعمتي ، فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ »
قال : « بلى ، ان في قلب أمير المؤمنين بعض تغير على ،
فتسأله الرضى عني » فقال جعفر : « قد رضى عنك أمير
المؤمنين » . قال : « وعلى عشرة آلاف دينار » فقال جعفر :
« هي حاضرة لك من مالي ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » .
قال : « وأريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير
المؤمنين » . قال جعفر : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته
الغالية » . قال : « وأحب أن تخفق الألوية على رأسه » .
قال جعفر : « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » . فأنصرف
عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجبا من اقدام جعفر على
ذلك من غير استئذان ، وقلت في نفسي : « عسى أن يجيبه
أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا عنه ،
إلا المصاهرة »

فلما كان من الغد ، بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون
من أمرهم . فدخل جعفر ، فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف
القاضي ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح . وبعد هنيهة
خرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد
له على مصر والرايات والألوية تخفق على رأسه . وخرج
كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح

وبعد ذلك خرج إلينا جعفر ، وقال : « أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك » . قلنا : « هو كما ظننت » . قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين ، ومثلت بين يديه ، قال : « كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ » . فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح . فكان أمير المؤمنين متكئا ، فاستوى جالسا ، وقال : « لله أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألتني رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم أجبته ؟ » قلت : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » قال : « قد رضى عنك عنه ، ثم ماذا ؟ » قلت : « وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار » قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد قضاها عنك أمير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الفالية » . قال : « قد أجبته إلى ذلك . ثم ماذا قلت ؟ » . قلت : « وقال أحب أن تخفق الألوية على رأسه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته أياها » ثم نجز له جميع ذلك من ساعته

وهذه الحظوة التي كانت لجعفر عند الخليفة والتي انفرد بها ولم يشاركه أحد فيها جعلت الشعراء يتملقونه ويزجون إليه المديح مع قلة سخائه وقصور عطائه عن أبيه وأخيه ، حتى أن الشاعر أبان اللاحقي حين جعل للبرامكة كتاب « كليله ودمنة » شعرا كما نظمته الفرس قبلا ليسهل حفظه ، وأوله :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كليله ودمنه
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

أعطاه الشيخ يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه
الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً وقال :
« الا يكفيك أن أحفظه فأكون رأويتك »

ولقد مدح أبو نواس الأمير جعفراً البرمكى فيمن مدحوه
ونحن لا نجد أثراً لذلك في باب المديح من ديوانه وإنما
نستدل عليه من الأهاجى التى قالها فيه وهى فى باب الهجاء
كثيرة شديدة البذاء . فهذه الأهاجى صريحة الدلالة على
سابقة مدحه له على وجه قاطع للشك لا تعترض فيه أدنى
شبهة :

« لقيت فتى ضمتته الطريق	ونحن ضحى نقصد العسكرا
فقال - وأزكنى شاعراً	وأزكنته فطناً مُكرراً : (١)
« أتشدنى بعض ما صغتهُ	ولا تدع الأجودَ الأفخرا »
فأنشدته مدحى البرمكى	أبا الفضل أعنى الفقى جعفرا
فأعجبني ظرفه إذ يقول :	« مديحك درّ ، فهل درّ راء ؟ »

ونمسك عن البيتين التالين لما فيهما من اقذاع فى
الهجاء . . وكذلك كان بعض الأهاجى صريح الدلالة على أن
النواسى نادم الأمير جعفراً فى جملة من كانوا ينادموناه فى بعض
مجالس شرابه التى تقدمت الإشارة إليها

ونحن نتمثل من الأبيات التالية ما كان عليه جعفر من
فورة الطبع ودفعة الحيوية ، ونحسبهما من دواعى انجذاب
الرشيد اليه لمدافعتهما الفتور والملل . ولايبعد أن تلك الفورة
الطبيعية والدفعة الحيوية من جعفر كانتا تخرجان به - فى
غير حضرة الخليفة - الى شىء من العريضة عند الشراب ،
ولا غرو أن بالغ فى صفتها الشاعر فى معرض الهجاء :

(١) المنكر : الدامية

ما في النبيل مع العربيد لذة وابن ليحيى لاطم يدين
ريحانه بدم الشجاع ملطخ^ة وتحية الندمان قلع العين
لاتشر بن^ة وجعفرأ في مجلس أبداً ، ولا تحمل دم الأخوين
ثم في هذه الأهاجى ينمى الشاعر على جعفر بخله وامساك
يده :

أرى جعفرأ يزداد بخلا ودقة إذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعه الناس إلا على حق
وفي قصيدة أخرى :

قالوا : « امتدحت ، فمادا اعتضت ؟ » . قلت لهم :

« خرق النعال وإبلاء السراويل »

قالوا : « فسم لنا هــذا » . فقلت لهم :

« وصفي له كيعدل النصريح في القيل

ذاك الوزير الذى طالت علاوته (١)

كأنه ناظر في السيف بالطول »

وقد اكتفى الشاعر في هذه الأبيات في هجائه لجعفر بوصفه
دون تسميته . وذلك أن جعفرأ كان طويل العنق ، وهو أول
من عرض الجربانات وحشاها بانقطن يريد بتعريضها مداراة
ما هو ملحوظ من استطالة قفاه ، وما زال الناس بعده
ينسبونها الى ابن برمك ، فيقولون جربانات برمكية
وكان جعفر لا يقف عند قبض يده عن عطاء الشاعر بل

(١) العلاوة : أعلى العنق

كان اذا امتدح الشاعر اباہ يحيى فأراد أن يجزل عطيته
اعترض دونه فأعطاه يحيى دون ما قدر

ولم يملك أبو نواس في موجدته على جعفر الا أن يفكر في
الاساءة الى موضعه عند الخليفة بتقبيح صورته وتهجينه
في عينه فاجترأ على اظهار التعجب من ايثار الخليفة له
واتخاذہ لمجلسه واختصاصه بأنسه . وكاد أن يتهم الخليفة
في حسن ذوقه ولطافة حسه :

عجبت لهرون الامام وما الذى

يود ويرجو فيك ياخلقة السلق (١)

قفأ خلف وجهه قد أطيل كأنه

قفأ مالك يقضى الهموم على ثبق (٢)

ونحن اذا كنا كررنا هنا ما أسلفناه من أن جعفرا كان
متمكنا عند الرشيد ، غالبا على امره ، وأصلا منه ، بالغاً
من علو المرتبة لديه ما لم يبلغه سواه ، بحيث كان اذا انصرف
عن مجلسه خرج الرشيد معه حتى يركب مشيعا له لشدة
كلفه به وكرهه لفارقتة ، فذلك أننا نجد في هذه الغلبة
علة من العلل وطرفا من الملابسات التى لم يتيسر معها لأبى
نواس في ذلك العهد حسن الوصلة الى الخليفة هرون .
وما نحسب هنالك تصويرا لمبلغ ما كان يتكلفه جعفر من
الكيد واللجاجة في الممارسة ، لمدافعة الشاعر عن الحضرة
وصرف الخليفة عن تقديره ، من هذا الحديث الذى رواه
اسحق الموصلى في قوله : « دخلت الى الرشيد يوما وهو
يخاطب جعفر بن يحيى بشيء لم أسمع ابتداءه ، وقد علا
صوته . فلما رآنى مقبلا قال لجعفر بن يحيى : « أترضى
باسحق ؟ » قال جعفر : « والله ما فى علمه مطعن ان أنصف »

(١) الثبق سرعة الدمع

(٢) السلق : اللئب

فقال لى الخليفة : « أى شىء تروى للشعراء المحدثين فى الخمر . أنشدنى من أفضل ما عندك وأشدّه تقدما » . فعلمت أنهما كانا يتماريان فى تقديم أبى نواس ، فعذلت عنه الى غيره لئلا أخالف أحدهما ، وأنشدت أبياتا لأشجع السلمى . فقال لى الرشيد : « قد عرفت تعصبك على أبى نواس ، وانك عدلت عنه متعمدا . ولقد أحسن أشجع ، ولكنه لا يقول أبدا مثل قول أبى نواس :

ياشقيق النفس من حكم نمتَ عن ليلى ولم أنم »

فقلت له : « ما علمت ما كنت فيه يا أمير المؤمنين ، وانما أنشدت ما حضرنى » . فقال : « حسبك قد سمعت الجواب » وهذا الحديث قاطع فيما عرضنا له من تقرير الحال بين الشاعر وجعفر البرمكى

بين الخزيين الفارسى والعربى

ولقد كان للبرامكة خصم شديداً عنيد فى شخص الفضل ابن الربيع . ولم يكن الفضل حديث عهد بالسياسة ، فقد كان على حجابة الخليفة أبى جعفر المنصور حين كان أبوه الربيع بن يونس وزيراً له . ولكن الفضل كان مع ذلك عاجزاً عن مزاحمة البرامكة لا يقوى عليهم فى حياة الخيزران أم الخليفة . والخيزران شخصية قوية كانت متسلطة فى دولة المهدي زوجها تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ، والمواكب تغدو وتروح الى بابها وكانت شديدة متجبرة ، حتى لقد شكا زوجها أنها غضبت يوماً فوثبت عليه ومدت يدها اليه وخرقت ثوبه . ولما تولى ابنها موسى الهادي كان - على فظاظته وقسوته - كثير الطاعة لها ، مجيباً فيما تسأل من الحوائج للناس . فظلت المواكب لا تخلو من بابها . وكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلاً . فاعتل ،

فأصرت ، فأقسم لا يقضينه لها ، فأقسمت أن لا نسأله
 حاجة أبدا . ولم تكلمه بحلو ولا مر بعدها ، وانصرف قلبها
 بكليته إلى ابنها الآخر هرون . فلما أراد الهادي أن يخلع
 أخاه هرون من ولاية العهد ويجعلها لابنه جعفر ، جعل
 يحيى البرمكي - وكان القيم بأمر الرشيد - يعلله ويدافعه
 حتى حبسه الخليفة ، وأراد قتله ، لولا أن ثقلت العلة على
 الخليفة قبل انفاذ نيته . ولقد أشار إلى ذلك أبو نواس حين
 اشتدت به كراهة جعفر البرمكي وأعمته حتى كره البرامكة
 كلهم من أجله فعمهم بهجوه ، وراح يأسف على أن موسى
 الهادي في نقمته على يحيى وهمه بقتله لم ينفذ فيهم جميعا
 عزمه

إني لولا شقاء جدي
 مامات «موسى» كذا سريعا
 ولا طوته المنوت حتى
 أرى بنى برمك جميعا
 قد رسم الله من مطاهم
 لشاطئ دجلة الجذوعا
 هذا زمان القروذ فاضع
 وكن لهم ساعما مطيعا

ولم ينس هرون ما كان من موقف يحيى منه وتعرضه
 للهلكة في سبيله . فلا عجب إذا رأينا يوم ولي الخلافة كيف
 وكل أمورها إلى الشيخ الأمين قائلا له : « يا أبت ، أنت
 أجلسننى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك . وقد
 قلدتك أمر الرعية » . وعادت سلطة الخيزران إلى حالها ،
 وكان يحيى يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها .
 وكانت الدواوين كلها إلى يحيى ولم يلبث إلا يسيرا حتى
 دفع إليه الخليفة الشاب خاتم الخلافة . وكان الفضل بن
 الربيع إذا صار إلى الشيخ البرمكي فسأله حاجة يتقاعد
 عليه فيها . وظل الفضل وليس له شيء من نباهة الذكر لأن
 الملكة الوالدة في إثارها للبرامكة كانت تعارض في كل

ما فيه علو أمره . فلما أن توفيت في سنة ١٧٣ هـ دعا به هرون الرشيد على الأثر فقل له : « وحق المهدي ، اني لأهم لك بالليل بالشئ من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي ، فأطيع أمرها . فخذ الخاتم من جعفر » . وكان الخاتم وقتئذ بيد جعفر نيابة عن والده

ظهور نجم الفضل بن الربيع

ولى الفضل بن الربيع نفقات العامة والخاصة ، وولايات بادوريا والكوفة . فأقبلت حاله تنمى وجعل الفضل يعمل على الإيقاع بالبرامكة ، وتحريك السعاعة لهم ، وكانت له عيون عليهم من خاصة خدمهم ، حتى إذا أطلق جعفر البرمكي سبيل الثائر العلوي « يحيى بن عبد الله » وكان محبوساً عنده وقد خشى أن يرجع الخليفة في أمانه له ، بادر الفضل إلى رفع ذلك للرشيد فوقر في نفس الخليفة شئ من ذلك ، وطافت بقلبه شبهة أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته . على أنه لم يتعجل في أمرهم . وإنما جعله ذلك لا يقصر ثقته واعتماده عليهم دون غيرهم . فلم يأت عام ١٧٩ هـ حتى صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكي عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع . ولقد اغتنم أبو نواس هذه المناسبة ليخطب وده ويعتاض من رقد جعفر رقدته :

قولا لهرون إمام الهدى	عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة « الفضل » وإشفاقه	أخلى له وجهك من حاد
بصادق الطاعة ، ديانها	وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة	فلست مثل « الفضل » بالواجد
أوحده الله فما مثله	لطالب ذلك ولا ناشد
ليس على الله يستنكر	أن يجمع العالم في واحد

ولقد اشتد النفور بين جعفر والفضل بن الربيع ولم يعد به خفاء حتى تنازعا يوما بحضرة الخليفة فقال جعفر للفضل: « يا لقيط » فقال الفضل: « اشهد يا أمير المؤمنين » . فسأفت جعفر فصاحته وبديته فقال محتدما: « تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا - يا أمير المؤمنين - وأنت حاكم الحكام ؟ »

غير أن الرشيد كان قد تغير على البرامكة حتى عاد ما كان يجمل منهم في عينه قبيحا منكرا . فلم يعد اضطلاعهم بشؤون الدولة تخفيفا عنه وحملا للشغل دونه ، بل هو استبداد منهم بالامور دونه وامضاء لها على غير رأيه وعمل بما يحبونه لا بما يحبونه . ولقد كثر دخول ابن الربيع عليه . فكان الطبيب جبريل بن بختيشوع صنيعة البرامكة اذا دخل على الخليفة وهو جالس في مجلسه على مشرعة باب خراسان فيما بين قصر الخلد والفرات يصيب الفضل بين يدي الرشيد ، والملكة زبيدة من وراء الستر ، يتكلمان بنحو من كلام الخليفة في حق البرامكة . وكانت الملكة تثلبهم أكثر مما يثلب به أحد . ولعلها كانت تحقد عليهم ما أظهره من الاهتمام الخفي بأخذ المواثيق على ابنها الأمين بالوفاء لعهد الولاية من بعده للمأمون الابن الأكبر للرشيد من بعض الاماء الفارسيات . وما برح يستفحل السعي والتدبير للايقاع بالبرامكة حتى جعلت تشيل كفتهم عند الرشيد وترجع حظوة الفضل بن الربيع . وكان الفضل حريصا على كسب الدعاة واصطناع الشعراء توقيا من خبت لسانهم واجتلابا لثنائهم وطيب ذكرهم له

وكان يتألف أبا نواس مع اتصاله بالبرامكة ويبره . وكانت نكبة البرامكة وزوال دولتهم عام ١٨٧ ، اذ أمر الرشيد بقتل جعفر والقبض على يحيى وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بسبيل . وحبس الشيخ البرمكي وابنه الفضل في سجن الرقة . وأخذ ما وجد لهم جميعا من مال

وضياع ومتاع . وما من شك في أن شاعرنا النواصي قد
تأثر لنكبتهم لوفرة عطاء الفضل بن يحيى خاصة
ولما صارت الوزارة بعد نكبة البرامكة الى الفضل بن
الربيع تهوس بالادب وجمع اليه أهل العلم ، فحصل منه
ما أراد في مدة يسيرة . وكان الفضل يستقبل أهل الادب
والشعر في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ،
وفي صدره فرش عالية لا يرتقى اليها الا على درج وهو
جالس عليها . فيسلمون عليه بالوزارة ، فيحسن الرد
عليهم ويضحك اليهم ويستدنيهم حتى ليجلسهم اليه على
فرشه . ثم يسألهم ويلطفهم ويباسطهم ويستنشدهم فاذا
أنشدوه طرب وضحك وزاد نشاطه . ولقد تغاضى الفضل
عن اتصال أبي نواس بالبرامكة فما كاد يأفل نجمهم وينطفئ
قبسهم حتى احتضنه آل الربيع وخصوه جميعا بالرعاية .
وأظهروا له المودة . فجعل اعتماده عليهم . ودام اتصاله
ببابهم في خلافة الرشيد وخلافة الأمين . وله مدائح في
الفضل بن الربيع وفي ولديه العباس ومحمد وفي أخيه
جعفر ، أشهرها وأجودها عند نقاد العرب الأرجوزة البليغة
التي مطلعها :

وبلدة فيـهـبـا زور صـعـراء تخطى في صعر (١)

وقد جمع في بعض مديحه لهم ثلاثة أجيال منهم في هذه
الابيات الثلاثة :

سياد الملوك ثلاثة مامنهم إن حصّالوا إلا أغرّ كـمـريـع
ساد « الرُّبيعُ » وساد « فضل » بعده

وعلت « بعباس » الكـرـيم فروع

(١) الزور الاموجاج ، وصعراء مائلة . تخطى : تحمل على الخطو .
والصفر الميل

« عباس » عباس^٢ إذا احتدم الوغى

و «الفضل» فضل^٣ و «الربيع» ربيع

فهو في سبيل مرضاة آل الربيع يذهب الى حد تلقيبهم بالملوك ، كما يقرنهم تارة الى البيت البرمكى معرضاً به ليجعلهم أرسنخ أصلاً وأبدخ مجداً ، كقوله في مدح العباس ابن الفضل بن الربيع :

جَدُّكَ يَوْمَ الْحُجَّوْنَ إِذْ قَدَحُوا تَدَارَكَ الْمَلِكَ مِنْ شَفَا هَارِ
تِلْكَ الْعَالَى إِنْ كُنْتَ مَفْتَخِرًا لَا شَرَفُ النُّوْبَارِ وَالنَّارِ

على أنه في هذه القصيدة نفسها يظهرنا على حاله من الضر، فاذا هي من سوء أثر الفقر تبلغ الفقر المدقع وتكشف عن دار بلقع :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي نَشَبٌ خُفَّ ظَهْرِي وَقَلَّ زَوْجَارِي
مَنْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَى فَقْدٍ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا حَوَتْ دَارِي

فلا غرو اذا رأيناه في أمثال هذه الحالة يتذكر ما كان يغمره به البرمكى وابنه الفضل من مترادف النعم وجزيل النوال ، وأن يبدو منه وقتئذ وهو يمر بدور آل الربيع وعلى بابهم المواكب والقصاد من أصحاب الحاجات :

مَا رَعَى الدَّهْرَ آلَ بَرْمَكٍ لَمَّا أَنْ رَمَى مَلِكَهُمْ بِأَمْرِ فُظْيَعٍ
إِنْ دَهْرًا لَمْ يَرْعَ حَقًّا لِيَجِي غَيْرَ رَاعٍ ذِمَامَ آلِ الرِّبِيعِ

مع محمد بن منذر

ولقد حج الرشيد بعد ايقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع . وسعى في ركاب الخليفة جماعة من الشعراء، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس ومحمد بن منذر

من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن مناذر قد هيا في قوله مدحا أجاد تنميته وتنوق فيه ، وكان الرشيد يسأل عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مرات على مدائحه صلوات سنية . فلما كان يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان البشر ظاهرا في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكر وعبس في وجهه . وأضاف الفضل : « مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم : أتانا بنو الاملاك من آل برمك » ، فأمره الخليفة أن ينشد . فلما أبى . توعدده وأكرهه . فأنشد الشاعر القصيدة ، ثم اتبع ذلك بقوله : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم ، وفي طاعتك ، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نعمتك . ولم أكن في ذلك مبتدعا ، ولا خلا أحد من نظرائي في مدحهم . وكانوا قوما قد أظلني فضلهم وأغنانى رفدهم ، فأثنت بما أولوا » . فلم يتم قوله حتى كان الخليفة قد نادى : « يا غلام ، أظلمه على وجهه » . فلطموا الشاعر حتى سدر بصره واظلم ما كان بينه وبين أهل المجلس . ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول : « والله لأحرمنك ، ولا تركت أحدا يعطيك شيئا في هذا العام » . فسحبوه حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله . فاذا بشاب قد وقف عليه ثم قال : « أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى عليك » . ثم دفع اليه صرة وهو يقول : « تبلغ بما في هذه » . فظنها ابن مناذر دراهم ، فاذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر ، فسأل ابن مناذر في دهشسته وهو لم يبصر بعد من عشوته : « من أنت ؟ جعلني الله فداءك » . فقال هذا الأريحي : « أنا أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير ، واعذرني » . فقبلها الزميل المنكوب وقال : « وصلك الله يا أخي ، وأحسن جزاءك »

واذا ذكرنا بهذه المناسبة ما وقع من ابن مناذر في موسم
للحج سابق ، اذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما
أشعر في همزية لكل منهما أنشدها في وصف الخمر، فحكم
ابن مناذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام
أبو نواس منكسرا . . . فلا شك أن القاري يرى معنا
ما تنطوي عليه وقفة النواسي بعد ذلك مع زميله من غلبة
روح الزملة والترفع عن الشماتة ، فضلا عما قد يكون في
ذلك من الدلالة على مشاركته إياه في الوفاء الكريم للممدوحين
الاسبقين . ومهما قيل في أبي نواس من عطله من الفضائل
الخلقية ، فإن هذه وحدها فيه شاهد صدق على وفور حظه
من حساسية الانسان الحي ، وأريحية الشاعر الذي ولد
شاعرا

مناداة الأمراء

وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدي
وغيرهم من الهاشميين وكان يناديهم ويلازمهم . وكان ممن
ناديهم القاسم بن الرشيد ، ولقى القاسم منه أشياء كرهها
وكرهت له ففارقه

وممن أقبل أبو نواس على مناديتهم الامير عيسى بن أبي
جعفر المنصور . وكان وقتئذ شيخا جليلا . ولقد عزم
الامير يوما على أبي نواس أن يقيم معه في قصره أسبوعا
بالقفص على مقربة من بغداد . وأقام الجماعة يقصفون
ويشربون بين عزف وغناء في مجلس وسط الحدائق الفيحاء .
فلما أرادوا الانصراف وصله الامير وخلع عليه وحمله الهدايا
وقال له : « بحياتي عليك ، صف مجلسنا هذه الايام كلها
التي أقمناها فقال في ذلك قصيدته :

يا طيبنا بقصور القفص مشرقة

فيها الدنيا كرك (١) والأنهار تطرد

وكانت وفاة الأمير عيسى بن أبي جعفر المنصور سنة ١٨١
أي قبل نكبة البرامكة

ولعل أحب الممدوحين إلى شاعرنا الأمير الهاشمي العباسي
ابن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور والقاري لمداثحه
له يحس صدق اللهجة وحرارة العاطفة. ولقد كان من متابعة
الأمير له باحسانه ، ومواليته إياه بالنعم والافضال ، ووضع
بالعطاء بعد العطاء بادئا وعائدا من غير من ولا انتظار حمد ،
أن انطلق الشاعر مع حبه للسعة وانخرق يده بالنفقة يعتذر
عن هدايا الأمير ويطلب جادا أو غير جاد ، وقف المزيد من
هذا الفيض الغمر حتى ينهض بأعباء الشكر لما سلف

لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

ثم هو في كلامه عن الأمير الجواد كالمستهول لبجر اشتد
صبيه ، وطفئ مدده - فتراه وهو الشاعر المستمنح -
لا يملك نفسه معه من الدهشة :

أنا في دنيا من «العبّ	باس» أغدو وأروح
كلّ جودٍ يا أميري	ما خلا جودك ريح
إنما أنت عطايا	أبدأ لا تسريح
بحّ صوتُ المالِ مما	منك يشكو ويصيح
« ما لهذا آخذٌ فو	ق يديه، أو نصيح ! »

(١) الدساكر جمع دسكرة وهي القرية والصومعة وبيوت الاعاجم
يكون فيها الشراب والملاهي ، أو بناء كالقصر حوله بيوت

جُدت بالأموال حتى قيل ما هذا صحيح
صوّر الجود مثلاً فله «العباس» روح

ولما أن وكل أمير المؤمنين هرون الرشيد الى العباس في
سنة ١٩٢ هـ الحج بالناس فغاب عن بغداد انقطع عن الشاعر
ما كان يبره به واشتد به الضيق . حتى اذا رجع من الحج
استقبله الشاعر بقصيدة مشهورة مطلعها :

ديار نوار ، ما ديار نوار كسوناك شجواً، هنّ منه عوار

وفي هذه القصيدة يذكر ما كان للامير من ما أثر وأفضال
في هذا الحج ، وقد وصفه فيها بكرم اليد بما بذل لأهل
الحرمين من مساعدة وما وزعه على أبناء السبيل من صدقة ،
ثم وصفه بكرم المحتد بما اجتمع له من نسب نزار في جده
الاول الخليفة أبي جعفر ومن نسب قحطان في جدته الاولى
زوجة أبي جعفر المنصور وهي أم موسى بنت منصور الحميرية،
وأخيراً عاد الشاعر يذكر ما كان في غيبة الامير من فاقتله
وحاجته :

إليك غدت بي حاجة لم أُنج بها أخاف عليها شامتاً فأداري
فأرّخ عنها ستره موقوفك الذي سترت به قدماً على عواري

وللشاعر فيه عدا ذلك قصائد أخرى نبجزي منها بذكر
أشهرها جميعاً عند أهل اللغة والادب وهي التي مطلعها :
أيها الكتاب عن عُفْرِه لست من كَيْلِي ولا سَمَرِه
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت الحمر من عُمرِه

كرامة الشاعر

ولم يكن النواصي مع اعتماده في طلب العيش على الكبراء

وأرباب الدولة، بالذى يتحاور ويتهضم نفسه لهم ويستشعر
الضعة والصغار فى ناحيتهم . ففسد كان يمنعه من ذلك
شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن وقيمة، ومغالاته
بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور
فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريبا من دور
بنى نوبخت بنهر طابق وعنده جماعة فجعل يمر بأبى نواس
القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليه وهو متكئ
ممدود الرجل لا يتحرك لأحد منهم . وإذا جلساؤه ينظرون
إليه وقد قبض رجله ووثب ، وقام الى شيخ أقبل على حمار
له ، وكان الشيخ إذا ألتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس ،
ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفا معه يراوح بين
رجليه يرفع رجلا ويضع أخرى ، حتى فرغ الحديث ومضى
الشيخ

وهكذا تخلو حياة شاعرنا مما يعلق بحياة الكثيرين من
أمثاله المتصلين بأبواب الملوك والأمراء من اعتيادهم الضراعة
والنزول عن حقهم فى الكرامة وفرط تضاؤلهم وهوانهم على
أنفسهم



الرشيد وأبو نواس

في الأدب الشعبي والشارح

كان للأدب الشعبي ، وعلى الخصوص حكايات ألف ليلة وليلة ، شأن كبير في اشتهار الرشيد دون سائر أمراء المؤمنين عند عامة الناس . فأغلب ما يحكى عن بغداد في حكاياتها لا يخلو من ذكر الرشيد والاشادة به والتعظيم له . وقد يصح في تعليل ذلك ذهاب بعضهم الى أن القصص العراقي في ألف ليلة وليلة قد وضع في أيامه ، فتحرى واضعوه تمليق الخليفة القائم بالأمر للحظوة عنده . ولا عبرة بالترادر القصص المأجنة فهي مستحدثة بعد ذلك متأخرة

فنحن اذا قلنا صفحات « ألف ليلة وليلة » تكررت على أعيننا صورة لامير المؤمنين هرون الرشيد وهو يعس بالليل في عاصمة دولته ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب أثناء خلافته ، وان كان ذلك التوافق لا يخلو من فارق ، هو الفارق بين الرجلين وبين العهدين . فقد كان الهم الاول والاخير في عسس الخليفة البسدوى عمر هو تفقد الراعى أحوال الرعية ، مبالغة في الحرص على استقصاء الحقائق ورفع المظالم وتوفير العدالة . أما أمير المؤمنين العباسي ، فمن وراء عسسه - في حكايات ألف ليلة وليلة - باعث أول شخصى من عقابيل الترف ، هو مدافعة ملل كان يغلب على

طبعه ، أو أرق شديد كان ينتابه ، فكان في كل مرة يعاوده
الملل أو الأرق ، يرسل في طلب الوزير جعفر البرمكي ،
وشاعرنا أبي نواس وغيره من الندماة ويخرجون معهم
مسرور السيف ، وهم مستخفون في ثياب التجار تارة ،
وتارة في ثياب الدراويش . وعلى هذا النحو يطوفون على
هواهم نواحي بغداد ، في طلب التسلية وتزجية الفراغ ،
بالمشاركة في الحياة العامة الليلية ، وبالإطلاع على دخائل
الأسرار البيتية وطرائف الوقائع الغرامية ، فضلا عن
الاستمتاع آخر الأمر بمظاهر المباغلة وما يصحبها من شعائر
التعظيم حين يقف القوم على حقيقة المستخفين ، وعلى رأسهم
أمير المؤمنين

جولة في ألف ليلة وليلة

ونعرض هنا على القارئ على سبيل التذكيرة ، لمحة موجزة
عابرة ، من ذلك الأدب الشعبي العربي ، في تصوييره
للخليفة هرون الرشيد ومعه رفاق جولاته الخاصة الليلية :
الوزير والنديم والحارس والسيف . ونبعثنا على نقلها أنها
هي الصورة الساحرة الغنية بالألوان ، العالقة في أذهان
العامة عندنا ، والماثلة في خيال السواد الأعظم من الغربيين
الذين لا يستهويهم من آثارنا الأدبية مثل كتاب ألف ليلة
وليلة ويكاد يقف علمهم بالشرق العربي عندها . والواقع
أنها في نوعها نسيج وحدها ، لا يغني غيرها غناءها في
استحضار صورة حية لذلك الشرق العربي . وقلما يجد
الدارس العربي منا - على كثرة المراجع وخزائن المعارف في
لغته - وصفا للحياة الاجتماعية في بغداد ، وفي غيرها من
البلدان العربية وقتذاك ، يعدل ما يتمثل لنا في هذه
الصفحات وأمثالها في ألف ليلة وليلة :

أرق الخليفة هرون الرشيد ذات ليلة أرقا شديدا .
فاستدعى خادمه مسرورا ، وقال له : « أئتنى بالوزير جعفر

سريعا . فمضى ، وأحضره . فلما وقف بين يديه ، قال :
« يا جعفر ، انه قد اعترانى فى هذه الليلة أرق منع عنى
النوم ، ولا أعلم ما يزيله عنى » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
هل تفعل ما أشير به عليك » . قال : وما الذى تشير به ؟ .
قال : « تنزل بنا فى زورق ، ونحدر به فى نهر دجلة
مع الماء الى محل يقال له قرن الصراط ، لعلنا نسمع ما لم
نسمع ، أو ننظر ما لم ننظر ، فلعل فى ذلك تفريجا اللهم
وزوال أسباب القلق عنك يا أمير المؤمنين »

فقام الرشيد عن موضعه، ودعا لصحبته مع الوزير جعفر
أخاه الفضل ، وأبا اسحق النديم ، وأبا نواس ، وأبا دلف،
ومسرورا السياف . ودخلوا حجرة الثياب ، فلبسوا زى
التجار جميعا ، وخرجوا الى دجلة ، ونزلوا فى زورق
مزركش بالذهب ، وانحدروا مع الماء حتى وصلوا الى الموضع
الذى يريدونه ، فسمعوا من بعض الدور الشارعة على النهر
صوت جارية تغنى على العود . فقال الخليفة : « يا جعفر ،
ما أحسن هذا الصوت » . فقال الوزير : « يا مولاي !
ما طرق سمعى أطيب ولا أحسن منه ، ولكن السماع من
وراء جدار نصف سماع »

قال : « انهض بنا يا جعفر ! حتى نتطفل على صاحب
هذه الدار ، لعلنا نرى هذه المغنية عيانا » . فقال الوزير :
« سمعا وطاعة »

وصعدوا من المركب ، واستأذنوا فى الدخول . فاذا
شاب مليح المنظر ، عذب المنطق ، فصيح الكلام قد خرج
اليهم وقال : « أهلا وسهلا ، يا سادتى المنعمين على ، ادخلوا
بالرحب والسعة » . فدخلوا وهو بين أيديهم . فرأوا الدار
بأربعة أوجه ، وسقفها بالذهب ، وحيطانها منقوشة
باللازورد وفى الدار ايوان به سدة جميلة ، عليها مائة
جارية كأنهن أقمار . فصاح عليهن ، فنزلن عن أسرتهن
ثم التفت رب الدار الى جعفر ، وقال : « يا سيد ، أنا

ما أعرف منكم الجليل من الأجل . باسم الله ، ليتفضل منكم من هو أعلى الى الصدر ، ويجلس اخوانه كل واحد في مرتبته . فجلس كل واحد في منزلته ، وقام مسرور في الخدمة بين أيديهم . ثم أقبل رب الدار عليهم وقال : « يا أضيافي ، عن اذنكم ، هل أحضر لكم شيئا من المأكول؟ » . قالوا : « نعم » . فأمر الجوارى باحضار الطعام

فأقبل أربع جوار مشدودات الاوساط ، بين أيديهن مائدة ، وعليها غرائب الألوان ، مما درج وطار ، وسبح في البحار ، من قطا وسمان ، وأفراخ وحمائم . وكان مكتوبا على حواشي السفرة من الاشعار ما يناسب المجلس . فأكلوا قدر كفايتهم . ولما غسلوا أيديهم قال الشاب : « يا سادتي ، ان كانت لكم حاجة ، فانبثوني بها ، حتى أتشرف بقضائها » . قالوا : « نعم » . فانما جئنا منزلك ، من أجل غناء رقيم ترامي الينا من وراء حائط دارك ، فاشتبهينا أن نعترف صاحبته ونسمعه . فان رأيت أن تنعم علينا بذلك ، كان من مكارم أخلاقك » . قال : « مرحبا بكم » ثم التفت الى جارية سوداء وقال : « احضري سيدتك »

وذهبت السوداء ثم جاءت ومعها كرسى فوضعتة . ثم ذهبت ثانيا وجاءت ومعها جارية كأنها البدر في تمامه . فجلست على الكرسى ، وناولتها السوداء خرقة من أطلس ، فأخرجت منها عودا مرصعا بالجواهر واليواقيت ، وملاويه من الذهب ، فشدت أوتاره . ثم ضمت العود الى صدرها ، وانحنى عليه انحناء الوالدة على ولدها ، ثم جستة تختبر رنينه ، فلما بان حنينه ، ضربت على الأوتار وأنشدت على مصاحبته أبداع الاشعار . وما فرغت من شعرها ، حتى غلبها البكاء ، فبكت لها سائر الجوارى . ولم يبق سامع لغنائها الا غاب عن وجوده ، من حسن هذا الغناء وشدة وقعته وعمق تأثيره . وقال الخليفة : « ان غناء الجارية يدل

على أنها عاشقة مفارقة » . فقال رب الدار : « انها ثاكلة
لأبيها وأمها » . فقال الخليفة : « ما هذا بكاء من فقد أباه
وأمه ، وإنما هو شجو من عرف الحب وكابد الشوق الى
المحبوب » . وأظهر لمن حوله طربه من غنائها ، فقال
أبو اسحق : « يا سيدى ، انى لأعجب لها غاية العجب ،
ولا أملك نفسى من الطرب » . وكان الخليفة - مع ذلك
كله - ينظر الى رب الدار يتأمله ، فلم تشغله محاسنه
وظرف شمائله عن رؤية ما يعلو وجهه من الاصفرار .
فالتفت اليه وقال : « يا فتى ، هل تعلم من نحن ؟ » .
قال : « لا » فقال جعفر : « أوتحب أن أخبرك عن كل
واحد باسمه » . قال : « نعم » . فقال للتعريف :
« هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين . . . » وذكر
بقية أسماء الجماعة . فأخذت رب الدار دهشة لم يلبث أن
أفاق منها ، حين سمع الخليفة هرون الرشيد يقول : « أشتهى
لو أخبرتنى عن سر هذا الاصفرار بوجهك ؟ » فقال :
« يا أمير المؤمنين ان حديثى غريب وأمرى عجيب » . قال
الخليفة : « أعلمنى به ، لعل شفائك يكون على يدى » ، وكلما
رأى ترده ، أردف : « هات ، فحدثنى » . فقد شوقتنى الى
سماعه »

قال : « انى من مدينة عمان ، وكان أبى تاجرا كثير المال ،
وكان له ثلاثون مركبا تعمل فى البحر ، أجرتها فى كل عام
ثلاثون ألف دينار . فلما حضرته الوفاة دعانى وأوصانى
بما جرت به العادة . وكان لأبى شركاء يتجرون فى ماله
ويسافرون فى البحر . فسمعتهم يصفون ميناء البصرة
واتساع تجارتها ، ثم عرجوا على وصف بغداد وأجمعوا على
أنه ليس أحسن منها فى البلاد وأطنبوا فى عظمتها وجلال
عمارتها وحسن شمائل أهلها حتى اشتاقت نفسى اليها ،
وتعلقت آمالى برويتها . فقامت وبعثت العقارات والاملاك ،
وبعت المراكب بمائة ألف دينار غير الجواهر والمعادن .

واكثرت مركبا وشحنتها بأموالي وسائر متاعى ، وسافرت
الايام والليالى حتى جئت البصرة ، فأقمت بهسا مدة . ثم
استأجرت سفينة انحدرت بنا أياما قلائل حتى وصلت الى
بغداد ، وأقمت فيها مدة . وفى بعض الايام توجهت الى
الفرجة ومعى شئ من المال . وكان اليوم يوم جمعة . فأتيت
الى جامع يسمى جامع المنصور وبعد أن فرغنا من صلاة
الجمعة خرجت مع الناس فى موضع يسمى قرن الصراط ،
فرأيت فى ذلك المكان موضعا عاليا ، وله روشن مظل على
الشاطيء ، وهناك شباك . فذهبت فى جملة الناس الى
ذلك المكان ، فرأيت شيخا جالسا ، وعليه ثياب جميلة ،
تفوح منه رائحة طيبة ، وقد سرح لحيته ، فافترقت على
صدره فرقتين ، كأنها قضيب من لجن ، وحوله أربع جوار
 وخمسة غلمان . فقلت لشخص : « ما اسم هذا الشيخ ،
وما صنعه ؟ » . فقال : « هذا طاهر بن العلاء وهو صاحب
القيان ، كل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر الى الملاح » .
فقلت : « والله ان لى زمانا ، وأنا أشتهى مثل هذا » . ثم
تقدمت الى صاحب القيان وسلمت عليه ، وقلت له :
« يا سيدى ، ان لى عندك حاجة » . قال : « ما حاجتك » .
قلت : « أشتهى أن أكون ضيفك فى هذه الليلة » . قال :
« حبا وكرامة » . ثم استأنف بعد لحظة : « يا ولدى !
عندى جوار كثيرة ، منهم من ليلتها بعشرة دنانير ، ومنهم
من ليلتها بأربعين دينارا ، ومنهم من ليلتها بأكثر ، فاختر
من تريد » . ثم وزنت له ثلاثمائة دينار عن شهر فسلمنى
لغلام فأخذنى الغلام وذهب بى الى الحمام فى القصر ، وخدمنى
خدمة حسنة . فخرجت من الحمام فأتى بى الى مقصورة ،
وطرق الباب ، فخرجت له جارية ، فقال لها : « خذى
ضيفك » . فتلقتنى بالرحب والسعة ، ضاحكة مستبشرة .
وأدخلتنى دارا عجيبة مزركشة بالذهب ، فتأملت فى تلك
الجارية ، فرأيتها كالبدن فى ليلة تمامه ، وفى خدمتها

جارتان كأنهما كوكبان . ثم أجلسني وجلست بجانبى ،
ثم أشارت الى الجوارى فأتين بمائدة فيها من أنواع اللحوم ،
من دجاج ، وسمان ، وقطا وحمام فأكلنا حتى اكتفينا ،
وما رأيت فى عمرى ألد من ذلك الطعام . فلما أكلنا رفعت
تلك المائدة ، وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى
والفواكه وأقامت عندها شهرا على هذا الحال

فلما فرغ الشهر جئت الى الشيخ وقلت له : « يا سيدى ،
أريد التى ليلتها بعشرين دينارا » . فقال : « زن الذهب » .
فمضيت ، وأحضرت الذهب ، فوزنت له ستمائة دينار عن
شهر . فنادى غلاما وقال له : « خذ سيدك » . فأخذنى
وأدخلنى الحمام ، فلما خرجت أتى بى الى باب مقصورة ،
وطرقه ، فخرجت منه جارية ، فقال لها : « خذى ضيفك » .
فتلقتنى بأحسن ملتقى واذا حولها أربع جوار ثم أمرت
بأحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الاطعمة ،
فأكلت ، ولما فرغت من الاكل ورفعت المائدة أخذت العود
وغنتنى . فأقامت عندها شهرا ، ثم جئت الى الشيخ وقلت
له : « أريد صاحبة الاربعين دينارا » . فقال : « زن لى
الذهب » . فوزنت له عن شهر ألفا ومائتى دينار ومكثت
عندها شهرا كأنه يوم واحد لما رأيت من حسن المنظر وحسن
العشرة

ثم جئت الى الشيخ وكنا قد أمسينا ، فسمعت ضجعة
عظيمة ، وأصواتا عالية . فقلت له : « ما الخبر ؟ » . فقال
لى الشيخ : « ان هذه الليلة عندنا أشهر الليالى ، وجميع
الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها ، فهل لك أن تصعد على
السطح ، وتتفرج على الناس » . فقلت : « نعم » . وطلعت
على السطح فرأيت ستارة حسنة ، ووراء الستارة محل
عظيم ، وفيه سدة وعليها فرش مريح ، وهناك صبية تدهشن
الناظرين حسنا وجمالا ، وقد اواعدت لالا ، وبجانبها غلام ،
يده على عنقها ، وهو يقبلها وتقبله . فلما رأيتهما ، لم أملك

نفسى ، ولم أعرف أين أنا لما بهرنى من حسن صورتها .
فلما نزلت سألت الجارية التى أنا عندها وأخبرتها بصفتها
فقالت : « مالك ومالها » . فقلت : « والله أنها أخذت عقلى » .
فتبسمت وقالت : « يا أبا الحسن ، ألك فيها غرض ؟ » .
فقلت : « أى والله ، فإنها تملك قلبى ولبى » . فقالت :
« هذه ابنة طاهر بن العلاء ، وهى سيدتنا ، كلنا جواريتها .
أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها ؟ » قلت : « لا » .
قالت : « بخمسماية دينار ، وهى حسرة فى قلوب الملوك » .
فقلت : « والله ، لأذهبن مالى كله على هذه الجارية » . وبت
أكابد الغرام طول ليلى ، فلما أصبحت ، دخلت الحمام ،
ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك ، وجئت الى أبيها
وقلت : « يا سيدى ، أريد التى ليلتها بخمسماية دينار » .
فقال : « زن الذهب » . فوزنت له عن كل شهر خمسة عشر
ألف دينار فأخذها ، ثم قال للغلام ، « اعمد به الى سيدتك
فلانة » . فأخذنى وأتى بى الى دار لم تر عيني أظرف منها
على وجه الارض ، فدخلتها ، فرأيت الصبية جالسة ، فلما
رأيتها أدهشت عقلى بحسنها ، وهى كالبدرة فى ليلة أربعة
عشر ، فسلمت عليها ، فقالت : « أهلا وسهلا ومرحبا »
وأخذت ييدى وأجلستنى الى جانبها . ثم صارت تؤانسنى
بلطف الكلام ، وأنا غريق فى بحر الغرام ، خائف فى
القرب ألم الفراق ، من فرط الوجد والاشتياق ، ثم أمرت
باحضار الأطعمة ، فأقبلت أربع جوار نهد أبكار ، فوضعن
بين أيدينا من الاطعمة والفاكهة والحلوى والمشوم والمدام
ما يصلح للملوك ، وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين ، ثم
جاءتها جارية بخريطة من الابريس فأخذتها وأخرجت
منها عودا فوضعتة فى حجرها وجست أوتاره وغنتنى
أعذب الغناء . فأقمت عندها على هذه الحالة مدة من الزمان ،
حتى نفذ جميع مالى . فتذكرت وأنا جالس معها مفارقتها ،
فنزلت دموعى على خدى كالانهار ، فقالت : « لاى شىء »

تبكى ؟ » . فقلت لها : « يا سيدتى ، من حين جئت اليك وأبوك يأخذ منى فى كل ليلة خمسمائة دينار ، وما بقى عندى شىء من المال » . فقالت : « اعلم ان أبى عادته أنه اذا كان عنده تاجر وافقر ، فانه يضيفه ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك يخرج به فلا يعود الينا أبدا . ولكن ، أكتنم سرى وأخف أمرى وأنا أعمل حيلة فى اجتماعى بك الى ما شاء الله ، فان لك فى قلبى محبة عظيمة . واعلم ان جميع مال أبى تحت يدى ، وهو لا يعرف قدره ، فأنا أعطيك كل يوم كيسا فيه خمسمائة دينار ، وأنت تعطيه لأبى ، وتقول له : « ما بقيت أعطى الدراهم الا يوما بيوم » وكل ما دفعته اليه ، فانه يدفعه الى ، وأنا أعطيه لك ، ونستمر هكذا الى ما شاء الله . فشكرتها على ذلك وقبلت يدها ، ثم أقمت عندها على هذه الحالة مدة سنة كاملة . فاتفق فى بعض الايام أنها ضربت جاريتها ضربا وجيعا ، فقالت الجارية : « والله لا أوجعن قلبك كما أوجعتنى » . ثم مضت تلك الجارية الى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله الى آخره . فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من ساعته ، ودخل على وأنا جالس مع ابنته ، وقال لى : « يا فلان » . قلت له : « لبيك » . قال : « عادتنا أنه اذا كان عندنا تاجر وافقر ، أننا نضيفه ثلاثة أيام ، وأنت لك عندنا سنة تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء » . ثم التفت الى غلمانها وقال : « اخلعوا ثيابهم » . ففعلوا ، وأعطونى ثيابا رديئة قيمتها خمسة دراهم ، ودفعوا الى عشرة دراهم ، ثم قال لى : « أخرج ، فأنا لا أضربك ولا أشتبك ، واذهب الى حال سبيلك ، وان أقمت فى هذه البلدة كان دمك هدرا » . فخرجت يا أمير المؤمنين ، برغم أنفى وأنا لا أعلم أين أذهب . وحل فى قلبى كل هم فى الدنيا ، وأشغلنى الوسواس ، وقلت فى نفسى : كيف أجىء فى البحر بمائة ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركبا ويذهب هذا كله فى دار هذا الشيخ النجس ، وبعد ذلك

أخرج من عنده عريانا مكسور القلب ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !!

ثم أقمت في بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاما ولا شرايا ، وفي اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة الى البصرة ، فنزلت فيها واستكريت مع صاحبها الى أن وصلت الى البصرة فدخلت السوق وأنا في شدة الجوع ، فرآني رجل يقال ، فقام الى وعانقني لانه كان صاحبيا لي ، ولأبي من قبلي ، وسألني عن حالي ، فأخبرته بجميع ما جرى لي ، فقال : « والله ما هذه فعال عاقل ، ومع هذا الذي جرى لك فأى شيء في ضميرك تريد أن تفعله » . فقلت له : « لا أدري ماذا أفعل » . فقال : « أتجلس عندي ، وتكتب خرجي ، ودخلي ، ولك في كل يوم درهمان زيادة على أكلك وشربك » فأجبت الى ذلك ، وأقمت عنده سنة كاملة أبيع وأشتري الى أن صار معي مائة دينار . فاستأجرت غرفة على شاطئ البحر ، لعل مركبا تأتي ببضاعة فأشتري بالدنانير بضاعة وأتوجه بها الى بغداد . فاتفق في بعض الايام أن المراكب جاءت وتوجه اليها جميع التجار يشترون ورحلت معهم ، واذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ، ونصبا كرسيين ، وجلسا عليهما ، ثم أقبل التجار عليهما لاجل الشراء ، فقالا لبعض الغلمان : « احضروا البساط » . فأحضروه ، وجاء واحد بخرج فأخرج جرابا وفتحه وكبه على البساط ، واذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت من سائر الألوان . ثم ان واحدا من الرجلين الجالسين على الكراسي التفت الى التجار وقال لهم : « يا معاشر التجار ، أنا ما أبيع في يومي هذا ، لاني تعبان ، فتزايدت التجار في الثمن حتى بلغ مقداره أربعمئة دينار . فقال لي صاحب الجراب ، وكان بيني وبينه معرفة قديمة : « لماذا لم تتكلم وتزايد مثل التجار ؟ » . فقلت له : « والله ياسيدي ما بقي عندي شيء من الدنيا سوى مائة دينار » . واستحييت منه

ودمعت عيني . فنظر الى وقد عسر عليه حالي ، ثم قال
للتجار : « اشهدوا على انى بعت جميع ما فى الجراب من
أنواع الجواهر ، والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار ، وأنا
أعرف أنه يساوى كذا وكذا ألف دينار ، وهو هدية منى
إليه » فأعطانى الخرج والجراب والبساط وجميع ما عليه
من الجواهر

ثم انى توجهت الى بغداد ومعى جميع مالى ، وسكنت فى
الدار التى كنت فيها ، فلما أصبح الصباح ، لبست ثيابى
وجئت الى بيت طاهر بن العلاء لعلى أرى من أحبها ، فان حبها
لم يزل يزيد فى قلبى . فلما وصلت الى داره رأيت الشاب
قد انهدم . فسألت غلاما : « ما فعل الله بالشيخ ؟ » فقال :
« يا أخى ، انه قدم عليه ، فى سنة من السنين رجل تاجر ،
يقال له أبو الحسن العمانى ، أقام مع ابنته مدة من الزمان ،
ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر
وكانت الصبية تحبه حبا شديدا ، فلما فارقتها ، مرضت
مرضا شديدا حتى بلغت الموت ، وعرفت أباها بذلك ،
فأرسل خلفه فى البلاد وقد ضمن لمن يأتى به مائة ألف
دينار ، فلم يره أحد ، ولم يقع له على أثر ، وهى الى الآن
مشرقة على الموت . قلت : « وكيف حال أبيها » . قال :
« باع الجوارى ، من عظم ما أصابه » . فقلت له : « هل أدلك
على أبى الحسن العمانى » . فقال : « بالله عليك يا أخى أن
تدلىنى عليه » . فقلت له : « اذهب الى أبيها وقل له البشارة
عندك ، فان أبا الحسن العمانى واقف على الباب » . فذهب
الرجل يهرول ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ ، فلما
رأنى ، رجع الى داره ، وأعطى الرجل مائة ألف دينار ،
فأخذها وانصرف وهو يدعو لى ، ثم أقبل الشيخ وعانقنى ،
وبكى ، وقال : « يا سيدى ، أين كنت فى هذه الغيبة ، قد
هلكت ابنتى من أجل فراقك ، فادخل معى الى المنزل » .
فلما دخلت سجد شكرا لله تعالى وقال : « الحمد لله الذى

جمعنا بك . ثم دخل لابنته وقال لها : « شفاك الله من هذا المرض » . فقالت : « يا أبت ، لا أبرأ من مرضي ، الا اذا نظرت وجه أبي الحسن » . فقال : « اذا أكلت ودخلت الحمام ، جمعت بينكما » . فلما سمعت كلامه قالت : « أصحيح ما تقول » . قال لها : « والله العظيم ، ان الذي قلتة صحيح » . فقالت : « والله ، ان نظرت وجهه ، ما أحتاج الى أكل » . فقال لغلामه : « احضر سيدك » . فدخلت ، فلما نظرت الى وقعت مغشيا عليها ، فلما أفاق ، استوت جالسة وقالت : « والله يا سيدي ما كنت أظن أني أرى وجهك الا ان كان مناما » . ثم انها عانقتني وبكت ، وقالت : « يا أبا الحسن ، الآن آكل وأشرب » . فأحضروا الطعام والشراب ، ثم صرت عندهم مدة من الزمان ، وعادت لما كانت عليه من الجمال ، ثم ان أباهما استدعى القاضي والشهود ، وكتب كتابها على ، وعمل وليمة عظيمة ، وهي زوجتي التي ترونها الآن .

وظل الخليفة وجماعته في عجب عجب مما يرون ، ومما يسمعون ، ثم انصرفوا شاكرين للفتى العمانى ضيافته . فلما جلس الرشيد في دار الخلافة قال : « يا مسرور » . قال : « لبيك يا سيدي » . قال : « اجمع في هذا الايوان خراج البصرة ، وخراج بغداد ، وخراج خراسان » . فجمعه فصار مالا عظيما ، لا يحصى عدده الا الله . ثم قال الخليفة : « يا جعفر » . قال : « لبيك » . قال : « احضر لي أبا الحسن العمانى » . قال : « سمعا وطاعة » . ثم أحضره . فلما حضر . قبل الارض بين يدي الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله ، فقال له الرشيد : « يا عمانى » . قال : « لبيك يا أمير المؤمنين ! خلد الله نعمة عليك » . فقال : « اكشف هذه الستارة » . وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الثلاثة أقاليم ، ويسبلوا عليه الستارة . فلما كشف العمانى الستارة عن الايوان ، اندهش عقله من كثرة المال ، فقال الخليفة : « يا أبا الحسن ،

أهذا المال أكثر ، أم الذى فاتك » • فقال : « بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر أضعافا كثيرة » • قال الرشيد : « اشهدوا يا من حضر ، انى وهبت هذا المال ، لهذا الشاب » • فقبل الارض ، واستحى ، وبكى من شدة الفرح بين يدي الرشيد ، فارتد الدم الى وجهه ، فقال الخليفة : « لا اله الا الله ، سبحان من يغير حالا بعد حال » • ثم أمر الخليفة أن يحمل اليه المال وسأله أن لا ينقطع عنه لاجل المنادمة

والقارىء المتابع سياق هذه الجولة الليلية وامثالها من ألف ليلة وليلة ، يلحظ لا محالة أن حظ منادمة الخليفة فيها أكثره للوزير جعفر ، وأن أبا نواس يشارك فيها بوجوده أكثر مما يشارك بحديثه أو مجونه • ولعل هذا الموقف السلبي قد عز على الاسـتاذ المستشرق « مردريس » Mardrus فى ترجمته الفرنسية النفيسة ، فكان من ذلك أن أجرى - فى قصة علاء الدين أبى الشامات - بعض كلام الوزير جعفر على لسان أبى نواس .

نوادر أبى نواس مع الرشيد

بيد أن الحال لا تظل على هذا المنوال من ألف ليلة وليلة ، بل تتخللها هنا وهناك نوادر تزول فيها الوحشة وترتفع الكلفة الى حد يوجب الدهشة ، بين الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد والشاعر الماجن أبى نواس • ونحن لا نتردد فى الجزم بأنها من الاضافات المتأخرة مجازاة لاذواق العوام ومن ذلك ما يحكى فى ألف ليلة وليلة من أن الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد أرق ذات ليلة - كعادته - أرقا شديدا • فقام يتمشى فى جوانب قصره حتى أتى مقصورة عليها ستر ، فرفع ذلك الستر فرأى فى صدرها تختا ، وعلى ذلك التخت شئ أسود كأنه انسان نائم ، وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة ، فبينما هو ينظر الى ذلك ويتعجب منه ، واذا بباطية مملوءة خمرا عتيقا والكأس عليها ، فلما رأى

ذلك أمير المؤمنين تعجب في نفسه ، وقال : « أتكون هذه
الصحبة لمثل هذا الاسود » . ثم دنا من التخت فرأى الذي
فوقه صبية نائمة ، قد تجللت بشعرها ، فكشف عن وجهها ،
فراها كأنها البدر ليلة تمامه ، فملاً الخليفة الكأس من الخمر
وشربه على ورد خدها ، ومالت نفسه اليها فقبل أثرا كان
بوجهها ، فانتبهت من منامها قائلة : « يا أمين الله
ما هذا الخبر » . فقال :

هو ضيف طارق في حيتكم هل تضيفوه الى وقت السحر ؟
فأجابته :

بسرور وهناء سيدي أخدم الضيف بسمعي والبصر

ثم قدمت الشراب فشربا معا ، ثم أخذت العود وأصلحت
أوتاره ، وضربت عليه احدى وعشرين طريقة ، ثم عادت الى
الطريقة الاولى ، وبعد أن أطربت بالنغمات وأنشدت أعذب
الابيات ، قالت : « أنا مظلومة يا أمير المؤمنين » . قال :
« ولم ذلك ؟ ومن ظلمك ؟ » . قالت : « ان ولدك اشترااني
من مدة بعشرة آلاف درهم ، وأراد أن يهبني لك ، فأرسلت
اليه ابنة عمك الثمن المذكور ، وأمرته أن يحجبني عنك في
هذه المقصورة » . فقال لها : « تمنى على » . قالت : « تمنيت
عليك أن تكون ليلة غد عندي » . ثم تركها ومضى . فلما
أصبح الصباح ، توجه الى مجلسه ، وأرسل الى أبي نواس
فلم يجده ، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتها في بعض
الخمارات على ألف درهم أنفقها على بعض المرد ، فسأله الحاجب
عن حاله ، فقص عليه قصته ، وما وقع له مع امرئ مبيع
أنفق عليه الالف درهم . فلما رأى ذلك الحاجب ، علم بحال
أبي نواس وغرامه فرجع الى الخليفة وأخبره بحاله فأحضر
الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها الى
أبي نواس فدفعها عنه وتوجه به الى الخليفة . فلما وقف بين

يديه ، قال له الخليفة : « أنشدني شعرا يكون فيه » يا أمين
الله ما هذا الخبر » . فقال : « سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين » .
وأنشده أبياتا تطابق واقعة الحال ، فقال له الخليفة على
أثرها : « قاتلك الله كأنك كنت حاضرا معنا » . ثم أخذه
الخليفة من يده وتوجه به الى الجارية . فلما رآها أبو نواس ،
وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق أكثر التعجبات . وقدمت
الجارية الشراب للخليفة ثم أخذت العود بيدها ، وأطربت
بالنغمات ، فأمر أمير المؤمنين باكثر الشراب على أبي نواس
حتى غلبه السكر ، ثم ناوله قدحا ، فشرب منه جرعة .
واستدامه في يده وقد غاب عن رشده ، فأمرها الخليفة أن
تأخذ القدح من يده وتخفيه ، فأخذت القدح من يده ، وأخفته
بين فخذيه ، ثم ان الخليفة سحب سيفه في يده ووقف على
رأس أبي نواس ، ووكزه بالسيف فاستفاق ، فوجد السيف
مسلولا في يد الخليفة فطار السكر من رأسه ، فقال له
الخليفة : « أنشدني شعرا ، وأخبرني فيه عن قدحك ، والا
ضربت عنقك » . فأنشد :

قصق أعظم قصه	صارت الظبية لصه
سرفت كأس مداى	بعد مصى منه مصه
سترته في مكان	بفؤادى منه غصه
لا أسئمه وقاراً	الأمير فيه حصه

فقال له الرشيد : « قاتلك الله ! من أين علمت ذلك ؟ » .
وأمر له بخلعة وألف دينار

وندع قصص « ألف ليلة وليلة » الى كتاب « اعلام الناس
فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس » وغيره من التصانيف
الادبية التاريخية ، فاذا هي كذلك في جملتها تروى
لأبي نواس مع الرشيد نواذر لا حصر لها ، وكلاما كثيرا

فى المجون والخلاعة ، وماجريات تدل على حضور بديته
وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه
والذى يتقرر فى الاذهان من مطالعة هذا المحصول الوافر
من النوادر هو أن الشاعر كان أشبه بمضحك للخليفة ،
يتفكه بأحاديثه ونوادر أفاعيله

الحقيقة فيمن كان مضحك الخليفة

والمقرر فى أسفار التواريخ المعول عليها أن الذى كان
مضحكا للخليفة ومحدثا فكها هو ابن أبى مريم المدنى ، فكان
الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن
بواه منزلا فى قصره وخلطه بحرمة وبطانته ومواليه وغلمانة .
وكانت له نوادر وأفاعيل غاية فى الجراة يضحك لها الرشيد
ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه
ما يحكى عن نوادر أبى نواس مع الخليفة هارون . فهى
حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة الى غير صاحبها

اختلاف المؤرخين فى منادمة أبى نواس للرشيد

وقد قيل فى أول اتصال لآبى نواس بالخلفاء أن الرشيد
قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « اطلب لى رجلا يصلح
للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فدل عليه .
فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من السمر
بديها ، فحسن موقعه عند الرشيد ، وأمر له بمال . وكان
ذلك سبب اتصاله به . وكان أبو نواس يحدثه من قبل
بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض
عن ذلك . فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا يا أبا نواس » .
فقال : « لا يحضرنى شيء » فقال الخليفة : « بحياتى إلا
ما قلت شيئا » قال : « كان الكذب عملى ، واليوم هجرته
يا أمير المؤمنين » . فضحك الرشيد وقال : « هذا أحب الى
من الحديث »

وقيل انه انما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بأنه كان اذا بكر اليه سأل خواص أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت ، ثم ينشده أشعارا لطيفة في مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا . فمن ذلك أنه كان يوما مع الرشيد في قصره ، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدتها تغتسل وقت الظهر ، فلما رآته تجللت بشعرها فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة انشده :

نضت عنها القميص لصب ماء	فورد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرّت	باعتدل أرق من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها	إلى ماء معدّ في إناء
فلما أن قضت وطرا وهمت	على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التدانى	فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل	وظلّ الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الاله وقد براها	كأحسن ما يكون من النساء

فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفا ونطعا يا غلام ! » . فقال الشاعر : « ولم يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « أمعنا كنت ؟ » قال : « لا ، وانما شيء خطر لى بالبال فقلته » . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة

. واذا صحت هذه النوادر المتكررة ، فلا مندوحة من القول مع الأقدمين بأن أبا نواس كان له بين خدم القصر ووصيفاته من كان يوافيه على الفور بما يجرى في المقاصير ، وما يقع بين الخليفة وجواريه خاصة من وقائع الصبوة ومواقف الغزل ليكون له من ذلك مدخل الى قلب الخليفة ؟

ولكن أتراها صحيحة هذه النوادر وأمثالها مما رواه بعض المتقدمين وجعل يردده غيرهم من بعدهم ويضيفون إليه ؟ أن القول بصحتها له مؤيدون ، وهم يجعلون لأبى نواس عند الخليفة هرون منزلة النديم الذى داخله وخالطه وانبسط إليه وتكشف معه ، حتى أنه أخذ المقام الاول بين الندمان وبنى لنفسه فى نهر طابق الدور التى لم تبين مثلها عظماء الناس . وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علما بأحوال أبى نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعة ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم ! وأغلب الظن أن الفريقين ذهباً مذهب الغلو فى الوهم ، وأن القولين لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم . ولكى نتبين وجه الرأى ، يحسن أن نتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد

الخليفة فى ساعات فراغه

كان هرون فى تفويضه أمور الدولة وتدبيرها الى البرامكة يجد من وقته الفراغ للتملى بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصهن بالمكانة عنده زبيدة ، وأمهات أولاده اللاتى يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين تذكرمنهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنبهم عندنا ذكرا الأمين والمأمون وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه والأدب ، وللخلة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب ، وكان هرون تام الخلقة جميلا ، طويلا ، أبيض مسمتا ، له وفرة وقد وخطه الشيب . وقد اشتهر بشرب النبيذ الذى كان يرخص أهل العراق فى شربه . وكان يحتفل بأحياء أبهى ما عرف فى بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين والمغنيات على أنواع المعازف والملاهى

ولا عجب فأولاد المهدي كلهم من محبي الموسيقى لما كان يجتمع في قصر أبيهم من القيان ، ولطول ما تردد في مجلسه من الغناء والألحان . وكان هرون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان مما يزيد في سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن ويفنى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصرا بالشعر وأصحهم تذوقا لجيده وأشدهم تأثرا به . فلا يمكن وهرون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى عليه شأن شاعر كأبي نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه

الأسانيد على تقدير الخليفة للشاعر

واذا كان المعقول لا يكفي ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه اسحق الموصلي من تقديم الرشيد لشاعرنا مع ما كان من ممارسة جعفر البرمكي في أمره وتعصب اسحق نفسه عليه وقتئذ لشيء جرى بينهما حتى صار لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا

ولقد كان شهر أبي نواس مما يتفنى به بين يدي الرشيد في مجالس الغناء العامرة الزاهرة ، ومن ذلك هذه المقطوعة التي غناها سليم بن سلام فيما كان مولعا به من الإهزاج :

أصبح قلبي به ندوبٌ أندبه الشادن الربيبُ

تماديا منه في التصابي وقد علا رأسي المشيب

أظني ذائقا حمائي وأن إمامه قريب

إذا فؤادٌ شجاء حبٌ فقلتما ينفع الطبيب

ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ،

قال :

قال لي الرشيد : « يا اسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فان

الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « يا سيدي ! على
الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيار - يريد
أبا نواس - وامثل فيها ما حد في مثلها لك » . قلت :
« يا سيدي ! فما قوله ؟ » . فقال الرشيد :
« من كف ساقية ناهيك ساقية »

في حسن قدر وفي ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذي مغالبية

بالكشخ محترف ، بالكشخ مكتب (١)
فقد روت ووعت عنهن ، واختلفت

ما بينهن ومن يشوين بالكتب
حتى إذا ما غلا ماء الشباب بها

وأفيعت في تمام الجسم والقصب
وجمشت (٢) بنحوي اللحظ فأنجمشت

وجررت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شبا

فيمن برا الله من عجم ومن عرب
تلك التي لو كحلت من عين قيمها

لم أقض منها ولا من حبها أربي «
واقطع مما تقدم في تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته
لفضله ومفالاته بقدر ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب

(١) الكشخ : الجمع بين النساء والرجال (٢) جمشها : لاعبها

أبو نواس عنا وعن اخوته غيبة طويلة متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحو من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله ان صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمداً ولدى . انظروا كل من كان هجاء من الناس فاكتبوا اسمه وأرفعوه الى » . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، اذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا على ! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت في موضع ارتضيه واشتبهه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من اخوانه الا عدله ، وقالوا : « ان في هذا تعريضاً لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إني لفي شغلٍ عن العالمين بالراح والريحان والياسمين

عند غزالٍ حسنٍ وجهه قلبي حبيسٌ بهواه رهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث الحسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس تربيين نشأ في مكان واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدة ، واتصل بي ما آل اليه أمره ، وبلغني ايثار السلطان وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت في الشعراء ، وهذا كله في أيام الرشيد ألا أني لم أصل اليه »

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادماً للبرامكة ثم دخل بعدهم في خدمة الرشيد - قال : « كنت واقفاً على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتي) فقال له الرشيد : أنشدني قولك في الخصب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتي » فأنشده أياها ، فلما بلغ قوله :

فان يك باقى افك فرعون فيكم

فان عصا موسى بكف خصيب

قال له الرشيد : الا قلت : « فباقى عصا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لى »
وأحسبنا بعد هذا الذى سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا تكون متعسفين اذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال دولة البرامكة

الترفع عن منادمة الخلفاء

ولكن الذى لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومنادمته له على الوجه الذى يقولون . فقد كان خلفاء بنى العباس حتى ذلك الحين — مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو — محافظين على وقار الملك . كما أن لهوهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدي مولعا بالصيد واللعب بالدبوق والصوالة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصيولجان فى الميندان ، الى جانب لعبه بالكرة والطباطاب ورميه فى البرجاس بالشباب ، مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم أنهم حتى فى خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام . فالمهدي كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشارا عن الفحش فى الغزل ، واذا حن الى سماع شىء منه قال لبشار : « قل فى الحب شعرا ولا تطل ولا تسم أحدا » . وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا ان ظيأ للخليفة صادنى ومالى على ظي الخليفة من عدوى

غضب الرشيد وقال : « أسخر منا ، فعبث ! » . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثه . وكان المهدي يسمح لمنادميه

في مجلس السماع أن يشربوا وأن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى ابراهيم الموصلي يشرب في منازل الناس ، ويتبدل معهم ويجيئه منتشيا ، أمر به ف ضرب وحبس . والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى في كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحج ومعه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمراء في الدين ، وتسرع دمعته حتى تخضل لحيته لوعظ الواعظين

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح في العقل اتخاذهم لمثل أبى نواس جليسا ملازما ، وإنما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولى الخلافة محمد الأمين

في زمرة الشعراء المادحين

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواء ، والمطلق اليد في خزائن الدولة والمتحكم في رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن في طبقتهم في هذا الباب قد كانت له مع ذلك في المديح أبيات يعدونها من غرر الشعر وفرائده

وقد نظم الشاعر في انتصارات جيوش الخليفة في آسيا الصغرى على جيوش الروم - حين قطع صاحبهم تقفور الجزية - قصيدة في مدح الرشيد يقول فيها :

إني حلفت عليك جهداً لية (١)	قسماً بكل مقصرٍ ومُحلقٍ
لقد اتقيت الله حقاً تهته	وجهدت نفسك فوق جهداً في
وأخفت أهل الشرك حتى إنه	لتخافك الشُّطُفُ التي لم تُخلق

(١) الآية : القسم

وبضاعة الشعراء إن أنفقتها (١) نفقت ، وإن أكدتهم لم تنفق

وفي سنة ١٨٩ تم للرشيد أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين فالأمون فالموتمن ، واحدا بعد الآخر ، فقال شاعرنا في ذلك :

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هارونا على الخلفاء

نؤا بنخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء

ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام ١٩٠ واتخذ قلنسوة يلبسها مكتوبا عليها : (غاز - حاج) تبارى الشعراء في ذكر ذلك ، فقال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الشغور

ففي أرض العدو على طمر (٢) وفي أرض الترفه فوق كور (٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا في ذلك :

هارون ألفنا ائتلاف مودة مات لها الأحقاد والأضغان

في كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواها الأفران (٤)

حج وغزو مات بينهما الكرى بالعملات شعارها الوخدان (٥)

فالشاعر كان عند باب الرشيد في زمرة المادحين ، ولم يكن له قط بالنديم

على أنه لم يكن موفقا في هذا الميدان ، بل كان لغيره فيه قصب الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من مجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر

(١) أنفقتها : روجتها

(٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير (٤) تنقطع حبال المطايا (٥) العملات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير

أبو نواس في مصر

كانت مصر من وفرة الخيرات التي يغلها واديها الخصيب بفضل نيلها المبارك ، أغنى ولايات الامبراطورية الاسلامية ، وكانت جباية خراجها الركن الأهم لخزانة الخلافة . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بهذه الجباية وتعويلهم عليها وازدياد شرهم اليها أن أخرجها بعضهم من يد عاملهم على مصر ، وندبوا صاحب الخراج من قبلهم ليكون أوثق صلة بهم وأحرص على مصلحتهم

ويذكر التاريخ من أصحاب الخراج من بالغوا في الزيادة على أصحاب الالتزام حتى ارتفعت جملة ما حمل الى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك من خراج مصر الى اثني عشر ألف ألف دينار

ومهما يكن من انحطاط الخراج دون ذلك كثيرا على أيام العباسيين ، فانه ما برح ذا شأن خطير في تدعيم خزانة الخلافة ببغداد كما هو ظاهر جلي في رسالة محمد بن زياد الحارثي للرشيد اذ يقول : « مصر خزانة أمير المؤمنين التي يحمل عليها مؤنة ثغوره وأطرافه ، ويقوت بها عامة جنده ورعيته ، فليس أمرها بالصغير ولا فسادها بالهين ، ولا ما يلتبس به صلاحها بالأمر الذي يأتي بالرفق ولا يصبر له على مشقة »

عدم استقرار الولاة

ولقد عمد خلفاء بني العباس الى الاكثار من تغيير الولاة

على مصر والمداولة بينهم حتى الثقات منهم ، مددا متقاصرة ،
وكانت هذه سياستهم مع عمالهم في أطراف الأمبراطورية
الاسلامية الواسعة ليأمنوا استفحال أمرهم في الأطراف
الموكولة اليهم والطمع في استقلالهم بها

بيد أن ما ترتب على هذه السياسة من عدم الاستقرار
جر على مصر ما جره لا محالة من اهمال مرافقها الحيوية من
تدبير الري والاستثمار من الترع وتقدير الأقيية واقامة
الجسور وكري الخلجان وسائر ما فيه صلاح الزراعة ، مع
تأمين الطرق وتيسير التجارة . ولم يلبث هذا الاضرار
بمرافق مصر من قلة الاستقرار أن ظهرت آثاره في نقص
خراجها أيام الرشيد . وقد كان الرشيد أكثر خلفاء بني
العباس تولية وعزلا لعماله على مصر حتى ندر فيهم من طالت
مدته على العام ، ومنهم من لم تجاوز ولايته الشهرين فما كاد
يبلغ الفسطاط حتى دعى الى بغداد، وكان من ذلك أن بلغت
عدتهم في اثنتي عشرة سنة ستة عشر واليا

ولاية الخصيب على الخراج

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قوم
لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الامصار
الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك في ١٩ شعبان سنة
١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد
العجمي الذي تنسب اليه منية بني خصيب المعروفة اليوم
في صعيد مصر بالمنيا . وكان الخصيب هذا رئيسا في
أراضيه ، فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ،
ثم انتقل الى امارة الخراج على مصر

والذي عليمه الرواة أن الخصيب كتب الى أبي نواس
يستزيه وهو من خواصه فخرج اليه . وخرج في وقت
خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا
خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا ببستان الرقة في

الجانب الغربى من بغداد ، فقال بعضهم لبعض : « هذا أبو نواس يمضى الى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار اليهم مسلما ، ثم قال لهم : « قد بلغنى ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فانى والله لا أبداً الا بكم » . فشكروه وسكنوا الى قوله

فى الطريق الى مصر

ومضوا جميعا الى عقرقوف ، وتقع غربى بغداد على ستة فراسخ ، فلحقوا بالقافلة الراحلة منها الى مصر، وهى رحلة عظيمة المشقة ، بعيدة الشقة ، مسافتها خمسمائة وخمسون فرسخا . وقد بكرت القافلة فى المسير ، اول ما لاحت فى آخر الأفق من الفجر التباشير ، وتابعت سيرها ناشطة غير مترفقة، فلم تتوقف الا بعض ساعة للراحة فى الهاجرة . وما وافى المساء حتى كان الراكب وراء الانبار فى وادى «عين اباع » . فادجوا فى الغسق ما استطاعوا ، ثم نزلوا للتعريس . وبعد هجعة من الليل ، استأنفت القافلة المسير فى الهزيع الاخير ، وعند انبلاج الصبح كانوا عند ماء « النقيب » فشربوا حتى ارتووا ، وأوردوه ابلهم ، وتزودوا منه ملء زقاقهم . ثم انطلقت القافلة فأوغلت بهم غربا فى برية الشام حتى أشرفوا على آثار « تدمر » القديمة وأطلال معابدها العظيمة

ودخلت القافلة الشام ، ولعلها عرجت على حمص ، فهى التى تلى تدمر من قريب . ويرجع ذلك ما رواه النضر بن أمية الحمصى الشاعر ، قال :

« لما خرج أبو نواس الى مصر ، كتب الناس الينا بذلك، فلم نزل نرقبه حتى قيل لنا قد قدم . فجئت الخان لأسأل

عن خبره ، فاذا انسان قاعد على درجه ، متشح بخلوقية (١) يستاك ، فدنوت منه ، فقلت : « يا فتى ، انسان قدم من العراق يقال له أبو نواس » ، وكان معي ابن لي حسن الوجه جدا . فقال : « ما تجعل لمن يدلك عليه ؟ » . قلت : « حكمه » ، قال : « قبلة من هذا الغزال الذي معك » ، قلت له : « ويحك ! هذا ابني » ، قال : « آدم خير منك ، والناس يقبلون بنيه ويلاعبونهم » ، فقلت له : « أنت أبو نواس ؟ » ، قال : « أنا هو ، فمن أين عرفتني ؟ » ، قلت : « بنسور الايمان » ، قال : « لا والله ، ولكن بظلمة الكفر ، فمرحبا بك » . فما زلت أناديه ، وما فارقت حتى ارتحل عن حمص وشيعته .

وقد يطعن في صحة هذه الرواية أنه لا شاهد في شعر أبي نواس على تعريجه في طريقه الى مصر على مدينة حمص ، غير أنه غير مستبعد مع ذلك أن يكون قد ورد ذكرها في بيت سقط من سياق قصيدته المصرية وأيا كان الامر ، فقد انحدرت القافلة في الديار الشامية الى غوطة دمشق . وهنا اجتازت أرض « جولان » الصخرية وقد دميت منها أخفاف المطايا ، ثم لاقوا بعدها الويل في مسراهم بالليل الى « بيسان » وهي بلدة حارة وبئة بالاردن بالغور الشامي بين حوران وفلسطين . ثم أمعن القافلة في فلسطين ، فجاوزوا بالرملة ثم بنهر أبي قطرس قريبا منها . ومضوا متعجلين فلم يعرجوا على بيت المقدس لفرط استعجالهم بلوغ مصر . وأخيرا بلغوا غزة على الحدود بين فلسطين ومصر . وكان دخولهم الارض المصرية من ناحية افرما حتى اتوا الفسطاط

في حضرة الخصيب

واتصل خبر قدوم أبي نواس بالخصيب ، فجلس له

(١) ثياب فارسية كانت معروفة بذلك الاسم

جلوسا عاما في مجلس جليل • وأقبل أبو نواس ومعه
جماعة الشعراء ، فدخل وحده اليه ، وبقي الشعراء في
دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيها الملك المؤملُ قد استزرت عصابة فأقبلوا

وعصبة لم تستزهم طفلاًوا رجوك في تطفيلهم وأملوا

والرجاء حُرمة لا تُجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيب قوله وكل من حضره ، وقال له
الخصيب : « من شريكك ؟ » • فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ،
فقال : « اجلس فقدر لهم صلاتهم على حسب مقاديرهم في
نفسك » • فقدر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ،
فوقع باطلاقها ، فأطلقت من وقتها • وقال له : « أخرج
ففرقها عليهم ، واصرفهم ، ففعل ذلك ، وعاد اليه

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الاكرام وقربه
ورفع موضعه • ولما استقر به المجلس استنشده وكان عنده
جماعة من الشعراء • فقال أبو نواس : « هنا جماعة من
الشعراء هم أقدم مني وأسن • فأذن لهم في الانشاد ، فان
كان شعري نظير أشعارهم أنشدت والا أمسكت » •

فاستنشدهم الأمير فأنشدوا المدايح فيه • فتبسم أبو نواس
وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره • ثم قال : « أنشدك
أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون »
فقال : « هات » • فأنشده قصيدة طويلة من بلاغاته مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيورُ وميسور ما يرجي لديك عسيرُ

وفي القصيدة عدا المديح المعتاد وصف للقافلة السيارة
ورحلته معها من العراق عابرا البداء الى البلاد الشامية
قاصدا مصر • وقد أتى الشاعر في هذه القصيدة على ما تقدم

بنا ذكره من المنازل التي مر بها والبلاد التي حل فيها
ولقد اهتز الخصيب لما جاء على لسان الشاعر من المديح •

ولما بلغ الى قوله فى مخاطبة جارتة فى بغداد قبل رحلته :
تقول التى من بيتها خفّ مركبى :

« عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ

أما دون مصرٍ للغنى مُتطلبٌ ؟

بلى ، ان أسباب الغنى لكثيرُ »

فقلت لها - واستعجلتها بوادِرُ

جرت ، فجرى فى جريهنّ عبيرُ :

« ذرينى أكثرُ حاسديك برحلة

الى بلد فيها (الخصيبُ) أميرُ »

قال الخصيبُ : « اذن يكثر حسادها وتبلغ املها » ، وأمر
له بألف دينار

فلما كان من غد ذلك اليوم ، دخل أبو نواس الى مجلس
الخصيب كذلك ، وأنشده قصيدة أخرى ، استهلها بالنسيب
على طريقته ، ثم انتقل الى وصف الناقة التى استقلها فى
قصدته الى المدوح على طريقة الاقدمين من شعراء العرب ،
وأخيرا رفع عقيرته بهذه الخاتمة المشهورة :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدققا فكلّا كما بحرُ

لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً ، فما لكما به عذر

ويحقُّ لى اذ صرتُ بينكما أن لا يحلّ بساحقٍ قعر

النيل ينعش ماؤه مصرأ واندالك ينعش أهله الغمر

فقال الخصيبُ : « اذن لا يخيب املك » ، ولا ينقطع مرادك
ثم أمر له بألف دينار أخرى

ولشاعرنا في مدح الخصيب أكثر من قصيدة ، وهي قاطعة
في الدلالة على صحة ما رددته شعراء البرامكة بعد نكبتهم
وزوال دولتهم من كساد تجارة الشعر وانفضاض سوقه في
بغداد على حد قول سلم الخاسر في رثائه لهم :

هوت أنجم الجدوى ، وشلت يد الندى

وغاضت بحور الجود بعد البرامك

وهذا الكساد بعدهم هو الذي اضطر شاعرنا النواصي الى
التغرب عن وطنه والنزوح عن العراق الى مصر طمعا في نوال
الخصيب والتماسا للغنى والوفر :

لم تدّر جارتنا ولا تدري	أنت الملامة ربما تغرى
هبت تلومك غير عاذرة	ولقد بدا لك أوسع العذر
واستبعدت مصرأوما بعدت	أرض يكون بها أبو نصر
ولقد وصلت بك الرجاء، ولى	مندوحة لو شئت عن مصر
فما تنافسه الملوك من الـ	محور الحسان ، وعاتق الحمر
ومحدثت كثرت طرائفه	عان لدى ، لقلة الوفر
انى لآمل يا خصيب على	يدك السعادة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن	كسدت عليه تجارة الشعر
أنت المبرز يوم سبقتهمو	ان الجواد بعرفه يجرى
عرّف الخليفة أن نعمته	حلت بساحة طيب النشر
كان اذا عصب الأمور به ،	ماضى العزيمة طيب الذكر
فانقم بسيفك غلة نرحت	بى عن بلادي، وارتهن شكرى

ومع ذلك فقد حرص أبو نواس في سياق هذه القصائد على ذكر أمير المؤمنين الرشيد ، فهو اليوم الحاكم بأمره دون غيره ، والمستبد بسلطته في أرجاء دولته . ذلك فضلا عن طمع الشاعر في أن لا يخطيء عند عودته موضع رضاه وحظوته . ومن ذلك قول شاعرنا في سياق قصيدته الأولى بين يدي الخصيب :

فمن يك أمسى جاهلا بمقالي فان أمير المؤمنين خير
فما زلت توليه النصيحة يافعا الى أن بدا في العارضين قتيير
إذا غاله أمره ، فاما كفيته واما عليه بالكفاء تشير

تجارة الشعر

ولم يقصر شاعرنا تجارة الشعر على أمير الخراج وحده ، فمدح أثناء مقامه في مصر آل حديج وغيرهم . فمن حرموه منهم أو قصروا في حقه على حسب زعمه ، عاد فذمهم على عادة الشعراء المستجدين ، وذم من أجلهم المصريين أجمعين :

دم المسكارم بالفسطاط مسفوح

والجود قد ضاع فيها وهو مطروح

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم

لما حوى قصب السبق المساميع

أموالكم جمّة ، والبخل عارضها

والنيل مع جوده فيه التماسيح

على انه لا جدال في أن النواصي قد اجتمعت له في مصر جملة طائلة من المال . ويغنيها عن اكتناه ذلك واستنتاجه ، ما قرره الشاعر نفسه في منطوق شعره :

ياسائلى كيف حالى ؟ تنبيكه أشعارى
بمصر صرت غنياً عن سائر الأمصار
بها استقام طباعى وتمّ خلع عذارى

مجنون أبى نواس فى مصر

وهو هنا ماض كعهده ، فى باطله ولهوه . فكان يخرج
أحياناً فى زى الشطار وتقطيعهم ، بطرة قد صففها ، وكمين
واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق ، يدور فى أسواق
مصر فى طلب الندمان من الغلمان الحسنان . ومن نوادره التى
يفكه ابن منظور الأنصارى المصرى - صاحب لسان العرب -
بإعادة حكايتها والإفاضة فى تفصيلها ، ما وقع للشاعر حين
كان يختلف إلى أسواق مصر يومذاك مع ثلاثة غلمان أقران
أخذان ، حسان الوجوه كأنهم أقمار ، أصحاب ظرف وأدب
ومروءة وحالة حسنة حتى لم يكن بمصر أحد يتقدم عليهم فى
صباحة الوجوه ، أحدهم من ولد شبيب بن ربيع التميمى ،
والآخر من ولد عطية بن الأسود الخارجى ، والثالث من
أولاد الدهاقين . ولعل هذه النادرة - مع تعيينها الأسماء
والأنساب - كأمثالها من النوادر مصنوعة موضوعة من قبيل
التمهيد والتشويق لتكون بين يدى ما يروى للشاعر من
شعر ماجن

والناظر فى ديوان أبى نواس ، المتبوع لأشعاره فى مفترق
مواطنها ، يقع له هنا وهناك ما يستدل منه على زيارته
لبعض الأديرة القبطية وشربه فيها ، وإن كان لم ينص على
اسم واحد منها أو يعين لنا موضعه :

هات من الراح فاسقنى الراح أما ترى الديك كيف قد صاح
من كف قبطية مزنة نجعلها للصباح مفتاح
تقول للقوم من عجائتها « بالله لا تحبسن الاقداح »

الشغب في مصر

بيد ان الأحوال في مصر لم تكن مما يطمأن اليه . فقد كانت لا تسكن فتنة حتى تنشب فتنة ، من زيادة الاسعار واشتداد الغلاء مع الشطط في جباية الخراج . وكان يشترك في هذه القلاقل الاقباط والمسلمون والنازلون من عرب قيس واليمانية . اذ كانت المعاملة المجحفة تعم الاهلين أجمعين ، ولا سيما المزارعين

ولقد تكرر في خلافة الرشيد خروج عرب الخوف مما يلي فرع النيل الشرقي ، وتمردهم السافر وممانعتهم في الخراج وطردهم للجباة وقطعهم الطريق على المسافرين وسلبهم أموال التجار واجتراضهم أحيانا على السير نحو القسطنطين يواجهون جنود الحكومة ويتحدون سلطانها في قسبة الامارة وعقر دارها . حتى اضطر الخليفة اكثر من مرة الى تسيير الجيوش الكثيفة من الشام تحت امرة كبار قواده الاعلام لاختماد الفتنة واستخراج الخراج عنوة

ولا نحسب ابا نواس الا كان على علم قبل قدومه الى مصر باخبار اهل الخوف وكثرة انتفاضهم وتمردهم ، بدليل ما ورد في قصيدته الاولى من اشارة لمسير الخصيب صاحب الخراج الى اهل الجور او - على ترجيح تصحيفها - اهل الخوف ، والقبض على ثوارهم وجعلهم في الوثاق ، اذ يقول :
وأطرق حيات البلاد (١) كحياة

خصيبة التصميم حين كسور

سموت لأهل الجور في دار أمنهم

فأضحوا وكل في الوثاق أسير

ولقد شهد شاعرنا ابو نواس طرفا من مشاهد هذا

(١) طرق القوم اتاهم ليلا ودعاهم ، ومنه الطارقة بمعنى الداهية

الشفب المتكرر من أهل مصر لاشتداد الغلاء وزيادة الخراج .
فقد ماج الناس ذات يوم في المسجد الجامع وكانوا قد تواعدوا
أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصيب نفسه وهو على شربه
وعنده أبو نواس . فقال الشاعر : « دعنى أيها الأمير أكلمهم »
فقال الأمير : « ذاك إليك » . فخرج أبو نواس حتى وافى
المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ،
وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي

ألا نخذوا من ناصح بنصيب

ولا تلبوا وثب الحياة (١) فتحملوا

على حدٍّ حامى الظاهر غير ركوب (٢)

فإن يك باق إفاك فرعون فيكم

فإن عصا موسى بكفَّ خصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية

أكول لحيات البلاد شروب

ويقال انه لما سمعها الجمع تفرقوا فلم يبق منهم أحد
وعاد أبو نواس الى مجلس الخصيب ، فأمر له بألف دينار
ثالثة . وأكبر الظن ان الشاعر بعد الذي رآه رأى العين من
الشفب والخصام ، داخلته رهبة فأشفق على نفسه من
اطالة المقام ، فلم يعتم أن استأذن الأمير الجليل في امضاء
عزمه على الرحيل ، فأذن له بعد أن زوده من طرائف مصر
وقد أصدر الخليفة في ٧ رجب سنة ١٩١ أمره لواليه على
مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج .

(١) الحية (٢) يريد بهذا الوصف السيف

فانتهت بذلك امارة الخصيب . وعليه تكون امارة الخصيب
على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ الى ٧ رجب سنة
١٩١ ، وتكون السنة التي قيل ان ابا نواس قضاهما في ربوع
مصر واقعة في هذه المدة

مصر كما يراها أبو نواس

وكان أبو نواس يستحب من مصر جوها السجسج ويقول
غابطاً لأهلها : « ان دنياكم مستوية لا حر ولا برد
عليكم . وانكم تتصرفون في حوائجكم سائر نهاركم في اوله
وآخره وفي وسطه ، وليس هذا لاحد غيركم » . الا انه كان
ممتلىء القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص
والاخبار عن تماسيحه . ولا نشك في انه قضى المدة التي
قضاهما في مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف
حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك
كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه في بعض شعره بأنه من
خوف التماسيح لم ير النيل رأى العيان ، اللهم الا في القلال
والكيزان :

أظهرتُ للنيل هجراناً ومقلية (١)

اذ قيل لي انما التماسح في النيل

فمن رأى النيل رأى العين من كذب

فما أرى النيل الا في البواقيل (٢)

كما انه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها الا ما كان
يحمل الى الخصيب ويخص به ، وكان الخصيب يدخره
لنفسه ويضن به على من سواه ولو كان ضيفه ، حتى قال

(١) المقلية : البغض (٢) مفردها بوقال واصلها رومي Baucalis
وهو اناء كالكوز بلا عروة

أبو نواس محتججا : « ما نرى استئثار الخصب عينا
بشرابه ! » ثم قال كالمحدث نفسه :

يُخَصُّ « خصب » بالشراب وترجي

لديه نوالا ، ان ذا العجيب

وليس « خصب » بالخصب لضعفه

ولكنه وعز المحلل جديب

ومما لا شك فيه ان لابي نواس بمصر قصائد لم يأتنا خبر
عنها . وقد قال أحمد بن أبي طاهر ان المصريين يروون له
أشعارا لم تقع الى أهل العراق . وروى عن ديك الجن
الحمصي انه قال : « دخلت مصر بعد أبي نواس ، فوجدت
له بها أشعارا ليست عند أهل العراق » . وفي رسالة تنسب
الى أبي العباس في شعر أبي نواس انه سقط من الشعر الذي
قاله بالشام ومصر شيء كثير

اشتياق الشاعر الى وطنه

على ان الثابت المحقق ان أبا نواس كان وهو في مصر
شديد الشوق دائم الحنين الى المعاد الى بغداد ، ولم يكن
يحتبسه تلك المدة اليسيرة فيها الا طمعه في عطاء الخصب

اذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شبة سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم الى أهله من أعظم الحدثن

ولعل الذي جعله يبرم بها ويجتويها ويستثقل ظلها
ويستكره المقام فيها عدم استجادته لشرابها وجهله بمعاهد
لهوها ومخالفته لاهليها في ايثارهم الكتمان والتستر ، مع
عدم كمال اللذة عنده الا بالتهتك والمجاهرة . فنراه في مصر

لا يفتأ يذكر من بغداد وأرباضها تلك الحياة اللاهية الصاخبة
التي لا مثبته لها في مظاهر اللذة والخبور إلا ما اشتهر في
العصور الحديثة عن باريس مدينة النور :

ذَكَرَ الكَرْمُخَ نازحُ الأوطانِ

فصبا صبوبةً ولاتَ أوان

ليس لي مُسعدٌ بمصر على الشو

ق الى أوجهٍ هناك حسان

نازلات من السراة فكرها

يا ، الى الشط ذي القصور الدواني

إذ لباب الأمير صدرُ نهاري

ورواحي الى بيوت القيان

واغتفالي المولى لأختلس الغم

زفةً ممن أحبسه بالبنان

واعتمالي الكؤوس في الشرب تسعى

مُترعات كخالص الزعفران



أبو نواس في سجن المطبق

في بغداد

انصرف شاعرنا أبو نواس عن مصر ، بعد أن أصاب من عطاء أمير خراجها أبي نصر الخصب غاية ما كان في الامكان أصابته ، وبلغ من ذلك ما ليس يطمع في المزيد عليه . ولم تكن مصر بعد ذلك من همه ولا أربه ولا موضع هواه . فقد كان المقام فيها مما لا يطيب لشاعر مثله الفت نفسه من أساليب الحياة وألوان الحضارة الفارسية ومختلف النزعات الثقافية ما يفتقده هنا ويكاد لا يقع على أثره . ولقد عاد الشاعر الى العراق فكانت تعاوده ذكريات عن مواضع حله وترحاله في مراحل أسفاره في الشام والجزيرة ، فيشتاقها ويحن اليها في أشعاره ، الا مصر فلم يكن لها في طيب ذكرياته نصيب ، على الرغم من عطايا الخصب

وكان منصرف الشاعر عن مصر كما أسلفنا في منتصف عام ١٩١١ . وقد سلك في عودته الطريق التي سلكها في مقدمه أو قريبا من ذلك . ولكنه كان في هذه المرة ميسور الحال ، كثير المال ، عامر الوفاض فهو ينزل على كل مدينة يمر بها ويكون لها في واسع محفوظه شهرة بالملاهى والخمر

ويحكى انه لما انصرف من مصر ، مر في اجتيازه الشام - بحمص ، فرأى كثرة خماريها ، وجودة الشراب فيها ، وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة مفتبها ومصطحبا . ثم

عاج على دير الرصافة ، وهي رصافة هشام ، فبات فيسه
ليلته وقضى سحابة اليوم التالي ، ويشهد بذلك قوله :
ليس كالدير بالرصافة دير

فيه ماتشتهى النفوس وتهوى
بشبه ليلة ققضيت أوطا

رأ ، ويوماً ملأت قطريه لها (١)

ثم اجتاز بعانة ، من أعمال الجزيرة بين الرقة وهيت ،
وهي مشرفة على الفرات ، فسمع اصطخاب الماء في الجداول ،
فقال : « اذكرني هذا قول الاخطل :

من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها بجدول صخب الآذى سموار

واقام فيها ثلاثا يشرب من شرابها ، ثم قال : « لولا قربها
من قطربل ، ومجاذبة الدواعى اليها ، لاقمت بها أكثر من
ذلك » ومضى فلما دخل الانبار تسرع الى بغداد ، ولكنه لم
يتمالك حين بلغ ضاحية بغداد أن عدل الى قطربل وهو
يقول : « ما قضيت حق قطربل ان انا لم أبطو بها » . فأقام
ثلاثا حتى أتلف فضلة كانت معه من نفقته ، وباع رداء معلما
من أردية مصر ، ولعله مما أهدها الخصيب اليه من طرائف ،
وقال عند انصرافه من قطربل :

طربت الى قُطْرِبْل فأتيتها

بألف من البيض الصباح وعين

ثمانين ديناراً جياداً أعدّها

فأتلفتها حتى شربت بدّين

(١) القطر : الشق والناحية ، والمراد بقطري اليوم الصباح والمساء

رهنت قيصاً سابرياً وجبة
 وبعث إزاراً معلّم الطرفين
 وقد كنت في قطربل إذ أتيتها
 أرى أنى من أيسر الثقلين
 فروحت عنها معسراً غير موسر
 أقترطيس في الافلاس من مثين
 يقول لى الخمار عند وداعه
 وقد ألبستنى الراح خفّ حنين
 «الأرح بزین يوم رحت مودعاً»
 وقد رحت منه يوم رحت بشين

وعلى هذه الحال من الافلاس مع ازدياد الشوق الى
 استئناف حياة الباطل واللهو ، عاد شاعرنا الى بغداد ، وهو
 يطمع في توثيق الاتصال ببلاط الرشيد ، ويحلم بالنوال
 الذى ليس بعده نوال ، بعد أن صارت الى الخليفة خزائن
 المال ، وصار له الامر كله

هرون الرشيد فى اواخر عهده

ولكن الخليفة هرون الرشيد كان يزيد مع السن والعة
 شدة وتزمتا ، وزاد على ذلك أن قد ذهب البرامكة فلم يغب
 عداتهم غناءهم ، ولم يقوموا مقامهم ، فكان هو الناهض
 وحده بأعباء الحكم وضبط الامور وتوجيه الجيوش لحرب
 الروم وقمع الفتن فى الاطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على
 الرشيد من السرعة الى الغضب وانزال النعمة

وهذا التغير في حال الرشيد ، كان قمينا بأن يصيب
شاعرنا السكير الماجن بالخيبة المرة في عهد بغداد الجديد ، كما
كان نذيرا بما سوف ينزل به من عنت شديد . وبلغ من
ذلك أن ندم أبو نواس على عودته الى العراق :

رجعتُ الى العراق برغم أنفي وفارقتُ الجزيرة والشاما
على شاطئ البليخ وسا كنيه سلامُ مسلّم لقي الحماما

حبس الشاعر لسكره ومجونه

فلقد حبسه الخليفة في المطبق (١) أكثر من مرة لشربه
الخمر مجاهرا بها متهتكا فيها . فكان يقضى وقته يعبت مع
من يكون معه في الحبس ويلعبه الشطرنج والنرد

واتهم أبو نواس أكثر من مرة بالزندقة ، ومن ذلك أنه
كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد
قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام في الصف
الاول ، فقرأ الامام الآية : « قل يا أيها الكافرون » ،
فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة
اندفع اليه المصلّون ولببوه . وانتهى أمره الى أن دفع به
حمدويه صاحب الزنادقة فحبسه أياما . ولولا علم حمدويه
أنه ماجن وليس هو بحيث يظن ، لكان قد قضى عليه

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبي نواس
لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبي جعفر
المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل
بعدها الى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس
الرشيد مجلسا ، وأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من
الشعراء المحدثين ، الى أن اتصل الذكر بأبي نواس ، فغمز
عليه سليمان بن جعفر ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافر

(١) سجن بغداد في عهد العباسيين

بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة . وقد كار
نمى الى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثر
عنه من ذلك شيئا ؟ » قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يَناظِرُ في الدين ما الأمرُ ؟ لا قَدَرُ صَحٍّ ولا جَبَرُ !
ما صَحَّ عِنْدِي من جميع الذى يُذَكِّرُ إلا الموتُ والقبرُ
ثم قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السرِّ وذاك أنى أقول بالدهرِ
وليس بعد المات مرتجعٌ وإنما الموت بيضة العُقرِ

فاستشاط الرشيد غضبا وطار شققا وقال : « على بابن
الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « ان اذن لى
أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع
مما أنشده أبو أيوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله فى
غلام نصرانى :

تَمُرُّ فاستحييك أن أنكلما

ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلمما

ويهتز فى ثوبيك كلَّ عشية

قضيبٌ من الريحان شبَّ بمنعما

بحبك أن الجسم قد شفَّه الصنى

وأن جفونى فىك قد ذرفت دما

أليس عظيما عند كل موحِّدٍ

غزالٌ مسيحيٌّ يعذب مسلما

ولولا دخول النار بعد بصيرة

عبدت مكان الله عيسى بن مريم

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! واشنع من ذلك » . قال : « هات ! » فأنشده قوله في غلام نصراني آخر :

وملحة بالعدل ذات نصيحة ترجو إنابة ذي مجون مارق
بكرت تبصّرني الرشاد وهمتي غير الرشاد ومذهبي وخلاتي
فأجبتها : « كُفّي ملامك إني مختار دين أقسة وجثاقي
والله لولا أني متخوّف أن أبتلى »

وقطع الانشاد . فقال له الرشيد : « بماذا ويلك ! » . فاستعفاه ، فقال : « ويلك ! بماذا » فقال :

. بامام جور فاسق

فضج المجلس بأهله ، وانكر الرشيد نفسه ثم قال : « امض » فقال :

لتبسمته في دينه ودخلته ببصيرة مني دخول الوامق
إني لأعلم أن ربي لم يكن ليخصّهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل : « برئت من المنصور ان لم يبت هذا الكلب في المطبق ، ولتنكرني قولا وفعلًا » . وكان أبو نواس نمي إليه الخبر فساخ في الارض . فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع « المطبق » . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها الى أن أطلق ، فقال في ذلك :

الله فرج لي برأ
ي «الفضل» من حلق الكبول
وأقالني عنت العشا

ر وقد أيسر من المقييل

والشاعر كلما تمثل ما كانت عليه حاله في غيابة المطبق في
انتظار الموت وقد انقطع به الرجاء واستحكم اليأس ، ثم عاد
الى نفسه فوجده طليقا معافي ، تملكه الشعور العميق
الصادق بأن حياته دين عليه « للفضل » ، وأنه أصبح ملك
يمينه غير منازع وعبد معروفه :

أصبحت - غير مدافع - مولا كا

والحظ لي في أن أكون كذا كا

لله دري ! أي رهت منية

بالأمس كنت ، وهالك لولا كا

أصبحت معتدا على بنعمة

ما كان يُنعمها علي سوا كا

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الرشيد من قول شاعرنا يفتخر
بقحطان التي يدعيها ، ويسب عدنان ويهجوها في قصيدة
طويلة يقول فيها :

فاخره بقحطان غير مكتب خاتم الجود من مناقبها

ولا ترى فارسا كفارسها إذ زلت الهام عن مناكبها

واهج نزارا وأفر جلدتها وهتك الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم

قراء التاريخ العربى وكانت فى ذلك العهد تهيج بالشام خاصة،
وقد بلغت فى بعض أطوارها هيجاً تشيب لهوله الولدان ،
وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلقى كل مرة عنتاً فى
أخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع
ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت الى سمع الخليفة
قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر
استثناؤه للنبي محمد دون سائر قریش « ذات المتاجر » فى
هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه الى أن شطر الخليفة
يمان من ناحية جدته :

أحب قریشاً لحبِّ «أحمد» واعرف لها الجزل من مواهبها
ان قریشاً اذا هى انتسبت كان لها الشطر من مناسبتها
فأم مهدى هاشم - أم موسى الخيسر - منا ، فانخر وسام بها
ان فاخرتنا فلا افتخار لها الا التجارات من محاسنها
وانها - ان ذكرت مكرمة - جاءت تجاراتها بغالبها
واذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ،
فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمى القرشى
الى تعريض البلاد للفتن الداخلية
فأمر الخليفة بالشاعر المنكود فألقى فى غيابة « المطبق »
انتظاراً للموت فبقى فيه دهراً فجعل يتشفع بالوزير الفضل
ابن الربيع وهو لا يستطيع له شيئاً . فقال متحسراً لما
صار اليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخطاً على الفضل :

على مركبى منى السلام ، وبزنى
وغدواتٍ لهُوَ قد فقدن مكانى
فلو أن خدنى القريئين أبصرا
خضوعى للسجّات ما عرفانى

ولو أبصراني والقيود تقودني

ومشي إلى البواب بالنجشان (١)

سلى الله من أمسى يرشّح نصره

بفكّ إسارٍ منه عند يثاني

ومالى وقحطاناً وبثّ مديحها

ونصبي لها نفسى بكل مكان

فإن أُمس لا تُخشى لسيّفى فتكة

فلا تأمنن يا «فضل» فتكّ لسانى

وإنى لأرجو أن أراك كجعفر (٢)

ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هرون متزلفاً يرجو
وساطته ، ويعلم لله توبته وانابته :

تلتقى المراتب للحسين ذليلة

وإذا سواه يرومها تتصعب

إنّ الامام إذا اجتباك لسرّه

لمُسَدَّدٌ فيما أتى ومُصَوَّبٌ

لم يَبْشَلْ مثلكَ عَفَّةً فيما لا

وحزامةً فى كل أمرٍ يحزُبُ

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة فى الثمن بقصد التفرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكى الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل

نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه
على الجسر الأوسط

وخالطتَ خوفَكَ للإلهِ بخوفه
 فعلمتَ ما تأتي وما تتجنب
 أبلغ - هديت - إلى الامام رسالة
 عني بأنني بعدها أستعيب
 وشهادتي أنني حليفُ عبادة
 فأبوا على الأيام ذاك وجربوا
 وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيده :
 جعلتُ عبيداً دون ما أنا خائف
 وصيرته بيني وبين يد الدهر
 أشار إليه الناسُ من كل جانب
 وقالوا أبو عمرو لها وأبو عمرو
 ثم التجأ إلى الأمير الحسين بن عيسى بن أبي جعفر المنصور
 مستغيثاً مستصرخاً :
 رَفَعَ الصوتَ فنادَى يا أبا عيسى الجوادا
 كُنْ عَماداً - يا ابنَ مَنْ كا
 وتداركُ جسداً قد
 مات أو قد قيل كادا
 قلْ له إن قال « هل تا
 ب ؟ » « نعم تاب، وزادا »
 وضمن التوبة عَمَّنْ
 كلما أطراك عادا
 ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة ، توجه إلى الخليفة
 نفسه ضارعاً مستغفراً ذاكراً محامده معددا مآثره :

بِعَفْوِكَ - لَا يَجُودُكَ - عُذْتُ لَا بَلْ

بِفَضْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

فَلَا يَتَعَسَّدُونَ عَلَى عَفْوٍ

وَسِعَتْ بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ

فَإِنِّي لَمْ أَخْنِك بِظَهْرِ عَيْبٍ

وَلَا حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَخُونَا

بِرَاكَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا

وَحِمْنًا دُونَ بِيضَتِهِ حَمِينًا

فَشَفِّعْ حَسَنَ وَجْهِكَ فِي أَمِيرٍ

يَدِينُ بِحَبْلِكَ الرَّحْمَنَ دِينًا

إِذَا مَا الْهَوَلُ حَلَّ بِدَارِ قَوْمٍ

فَلَيْسَ لِحَارِ مِثْلِكَ أَنْ يَهُونَا

ولكن الخليفة كان في شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك
لمداركة الفتوق قبل اتساعها في اطراف ملكه . ولقد شغص
بنفسه مع اشتداد العلة عليه لحرب رافع بن ليث الثائر في
خراسان مصطحبا معه المأمون الذي جعلت له الولاية عليها ،
وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالموثمن على الرقة وكان
الخليفة قد اتخذها مقرا له ونقل اليها خزائنه في ذلك الحين ،
واستخلف على بغداد عاصمة الخلافة ولي عهده والخليفة
من بعده محمدا الأمين .

نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد ، حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد في غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، في قرية بالقرب من طوس ، بعلّة في حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبي جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا اليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين خارج المدينة في جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وانزلها معه في قصر الخلافة

الوزير الفضل بن الربيع

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضل جميع ما في المعسكر مما أوصى به الخليفة الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو

يقول : « لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدري ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللحاق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبة منهم بالحقوق بأهلهم ومنزلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفة الجديد ما قدمه فاستوزره

ثقافة الأمين

وكان الأمين قد تلقى في صباه على الكسائي وعلى ابن المبارك الأحمر وغيرهما من المؤدبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرأوه القرآن ، وعرفوه الآثار ، وعلموه السنن ، ورووه الأشعار وبصروه بمواقع الكلم وبدئه ، مع ما يجب على الخليفة العباسي من تعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، وما ألى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه في مستقبل عمره . وكان الأمين حسن الوجه ، تام القامة ، أبيض مسمنا ، صغير العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، شديدا في بدنه . وكانت طبيعة اللهو هي الغالبة عليه ، فلم يغن في ذلك حفاوة والده بأمر تنشئته وتعهده المؤدبين له بالتفقيه والتثقيف ، وظل على ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والاماء في رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بني هاشم بأهوائهم اليه تعصبا لولد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون

الخليفة يلهو

فلما أن أفضت اليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت - أي بعد البيعة له في بغداد بيوم - فأمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة في المدينة للصوالة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتببت له الأمور

واطمأن باله من ناحية الملك ، وجه في طلب الملايين وضمهم
اليه واجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وابتاعهم وغالى
بهم ، ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمى بهن ، وصير
الخصيان خلوتة في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ،
وامره ونهيه ، وفرض عليهم فرضا سماهم الجرادية ، وفرضا
من الحبشان سماهم انغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه
وفراغه مع هؤلاء الخصيان في المنادمة والشرب . وفي ذلك
قل بعض الشعراء :

لهم من عمره شطره وشطره	يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للعانيات لديه حظ	سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقما	فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس (١)	لعز على المقيم بدار طوس

تقريب الأمين لأبي نواس

وبديهي ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين
الندمان والخصيان أن يجري في الجماعة ذكر المجون والمجان ،
وأن تروى - فيما هم بسبيله - طرائف النوادر والأخبار ،
وتنشد لطائف الأشعار . ولا نزاع في أن النواصي كان أشهر
خلعاء ذلك الزمان وأجراهم شعرا على كل لسان ، فلا جرم
يتردد في المجلس اسمه ويستعاد شعره . والخليفة لا شك
عندئذ ذاكره ، فقد دخل عليه مع الكسائي في بعض درسه ،
وكان يفشى حضرته ويشترك في منادمته أيام أمارته . فلما
أن سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما يزل في المطبق »
فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى اسحق بن فراشة
وسعيد بن جابر أخو الخليفة في الرضاعة الى أبي نواس في

(١) يريد الرشيد لدفنه بطوس

محبسه فقالا له يطمئنانه : « ان أمير المؤمنين ذكرك البارحة
فقل ليس عليه بأس » . فنظم الشاعر أبياتا بعث بها اليه
يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يواسوا
أمينَ الله ، قد ملكتُ ملكاً عليك من النقي فيه لباس
ووجهك يستهلّ ندَى فيحيا به في كل ناحية أناس
كأن الخلق في تمثالِ روحٍ له جسد ، وأنت عليه راس

أميزَ الله ، إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك بأس
فلما أنشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشية قال :
« صدق ، على به » فجىء به في الليل فكسرت قيوده وأخرج
حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو مائل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صيغ من جوهر الخلافة بحثنا
يا أمينَ الإله يكلؤك الله مقيماً وظاعناً أين سرنا
إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتنا

وسر الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه
ومما يجب ذكره لأبي نواس شاهداً على طيب نفسه ،
وسلامة صدره من الضغن الذي يعمى ويصم ، وارتفاعه
بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغير رأيه في الرشيد بعد موته ،
ولم يخل من حزن عليه مع حبسه أياه ، ولم يجحد أحساناً
أسلفه إليه وأسداه . فنراه لا ينسى وهو يهنئ الخليفة
الجديد ويظهر سروره به أن يبكي الخليفة الراحل ويذري
عليه دمه :

جرتْ جوارٍ بالسعد والنحس فنحن في مأتم وفي عرسٍ

القلب يبكى ، والسنُّ ضاحكة ،

فنهجت في وحشة وفي أنس

يضحكها القائم الأمين ، ويهـ

كيننا وفاة الامام بالأمس

بدران ، بدرته اضحى ببغداد بالـ

خلد ، وبدرته بطوس في رمس (١)

وقد عاد ثانية الى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونٍ

وذي سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونٍ

من ذا يُسرُّ بدنياه وبهجتها

بعد الخليفة ذى التوفيق هارون

كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت

مولاه القديم بحياة مولاه الخليفة الجديد :

تعزَّ أبا العباس عن خير هالكٍ

بأكرم حتى كان أو هو كائنُ

حوادثُ أيامٍ تدور صروفُها

لهنَّ مساوٍ مرةً ومحاسنُ

وفي الحى بالميت الذى غيب الثرى ،

فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابنُ

(١) تنسب كذلك الى الشاعر ابي الشيص

احتجاب الخليفة للهو

وكان الفضل ينزل في بغداد في الشارع الأعظم بازاء درب
السقائين ، وقد صارت الامور كلها اليه وفوض اليه الخليفة
ما وراء بابه ، فهو الذي يولى ويعزل ويحل ويعقد عنه .
واحتجب الأمين ، وفي ذلك يقول شاعرنا يمتدح الفضل :

لعمرك ما غاب (الأمين محمد)

عن الأمر يعنيه إذا شهد (الفضل)

ولولا مواريث الخلافة أنها

له دونه ما كان بينهما فضل

لئن كانت الأجساد فيها تباينت

فتوَلَّها قولهم وفعلاهما فعل

أرى (الفضل) للدنيا ولالدين جامعاً

كما السهم فيه الريش والفوق والنعل

وذهب الأمين في الاحتجاب حتى عن اخوته وأهل بيته

وقواده واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع

خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى

وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار

وغيرها ، ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش

والسباع والطيور . وحمل اليه ما كان في الرقة من الجواهر

والخزائن والأسلحة ، وانقطع عن تدبير المملكة مشغلاً عنها

باللهو واللعب ومعاشرة المجان ، وقسم ما في بيوت الأموال

وما بحضرته من الجواهر في جلسائه ومحدثيه وخصيائه على

الخصوص ، حتى قال في ذلك أبو نواس :

أحمدوا الله كثيراً يا حميعَ المسلمين
ثم قولوا ، لا تملوا « ربنا أبقِ آميناً ! »
صدّر الخصيانَ حتى جعل التعيين ديناً
فافتدى الناسُ جميعاً بأمر المؤمنينـــــــ

الغلاميات

ولما رأت الملكة الوالدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورفع منازلهن مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفه عن ذلك فاتخذت الجوارى المقسدودات الحسان الوجوه ، وعممت رعوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فماست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن وأجتذبن قلبه وأبرزهن للناس في مجالسه . فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وامتلات بغسداد بهؤلاء الفتيات اللواتي كانوا يسمون « الغلاميات »

مجالس الغناء

وكان للأمين كأيسه الرشيد تولع بالغناء ، مع الغارق في وقار الوالد ونزق ولده . وكان يهياً له في قصر الخلد مجالس غناء يتغنى فيها ، فيرفع له دكان عال يفرش له ويبسط عليه بساط زرعى ، وتطرح عليه نمارق وفرش في لون البساط ، ويصفف له من آنية الفضة والذهب والجوهر امر عظيم . وتكون قيمة جواريه قد هيأت له مائة جارية صائفة ، فيصعدن إليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعدات إليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن في غناء

لحن من اللحن بصوت واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشر غيرهن ،
وهكذا دواليك في جو فائن ساحر بما يتمايل فيه من القدود
المليحة وما يتجاوب به من اللحن الفصيحة

وكان يجزل العطاء لأساطين الغناء في عهده أمثال اسحق
الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليرى أنه استقدم
ابراهيم بن المهدي عمه فأنحدر اليه في زورق الى قصره ،
وغناه صوتا طرب له الأمين فأمر أن يوقروا له زورقه ذهباً
وكان ابراهيم بن المهدي (١) يغنى الأمين أحياناً بشعر أبي
نواس في مدحه كقوله :

يا كثير النوح في الدّمن	لا عليها ، بل على السّكن
رشاً لولا ملاحته	خالت الدنيا من الفسكن
كلّ يوم يشرق له	حسنه عبداً بلا ثمن
يا أمين الله عش أبدأ	دُم على الأيام والزمن

ولقد استخف الطرب الأمين حتى قام من مجلسه ،
واكب على عمه يقبل رأسه . فقام ابراهيم من مجلسه يقبل
أسفل رجليه ، وما وطئتا من البساط . فأمر الخليفة له
بثلاثة آلاف درهم . فقال ابراهيم : « يا سيدي قد أجزتنى
إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم » . فقال الأمين :
« وهل هي إلا خراج بعض الكور ؟ ! »

حفلات الرقص

كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يديرها بنفسه
في أبهاء القصر الملكي ، فاذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع
الكبار وكأن الصحن من ذلك في نهار ، واذا الدار مملوءة
غلماناً ووصائف بحلل الوشي والجوهر ، واذا الجوارى

(١) ورد في العقد أنه ابراهيم الموصلى ، ويمنع من ذلك وفاته قبل
خلافة الأمين

والمخنشون يزمرّون ويضربون ، والقيان يفنّين على الطبول
والسرنايات ، والجميع في شيء واحد ، ومحمد في وسطهم
يرتكض رقصا . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي
أحدى هذه الحفلات ، وكان الخليفة وجه من جاء بهما ركضا ،
وقد جاء في وصفهما لما مر بهما تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا
القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال : « قوما في هذا
الباب مما يلي الصحن ، فارفعا أصواتكما مع السرناي أين
بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيرا عنه » . فأصغيا
للغناء المردد :

هذي « دنائير » تنساني وأذكرها

وكيف تنسى محبّا ليس ينساها

والله، والله، لو كانت - إذا برزت -

نفس المتيم في كفّيه ألقاها

فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناي ،
ويتبعانه حذرا من أن يخرجوا عن طبقتيه أو يقصرا عنه .
والخليفة الأمين يجول في الكرج ما يسأله ، يدنو إليهما مرة
في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجوارى بينهما وبينه ،
حتى الغداة

مجالس الشراب

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال
له ، يجد بئدماؤه في الشرب ويسقيهم معظم الليل وعلى
الريق . وكان إذا انتشى صاح في ندمائه « من منكم يكون
حماري » فكل واحد يقول « أنا » لأنه كان يركب الواحد
منهم عبثا ثم يصله . ولم يكن لأحد غلبة عليه في الشرب غير
أبي نواس

أبو نواس شاعر البلاط

ولقد أنشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد
عدة في مدحه . ولكن القارىء لها لا يلمس فيها من صدق
الاعجاب بالمدوح ما يلمسه في هذه القصيدة التى قاهها
للأمين كما يقول النديم للنديم :

ونَدَّمانِ يرى غَبناً عليه

بأن يُسمى وليس له انتشاء

إذا ناديتَه من نومٍ سكرٍ
كفاه مرةً منك النداء

فليس بقائل لك « إيه ، دَعْنِي »

ولا مستخبر لك « ماتشاء ؟ »

ولا كن « يا سقنى » ويقول أيضاً

« عليك الصِّرفَ إن أعياك ماءُ »

وذاك محمد بن قيس بن عمار

وحسب له وقل له الفداء

وقد أجازهُ الأمين عليها بكل بيت ألف درهم
وكان أبو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائحه
الرسمية للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه
معه . من ذلك قصيدته الأولى في مديحه وهى المعلقة
المشهورة التى مطلعها :

يا دارُ ، ما فعلت بك الأيامُ ضامتكِ ، والأيام ليس تُضامُ

وهو مطلع في وصف الرسوم والديار تجيء بعده أبيات

في طي الفياقي وتجشم الأسفار من أجل الممدوح جريا على
المذهب التقليدي . ولكن الشاعر النديم لا يلبث أن تغلب
عليه نزعتة فيجري على طبعه ويخلص الى طريقته :

ملكٌ أغرٌ إذ شربت بوجهه لم يعدك التبجيل والاعظامُ
فالبهـو مشتملٌ بيدِ خلافة ليس الشباب بنور الاسلام
إن الذي يرضى الاله بهديه ملكٌ ردّى الملك وهو غلام

اشتغال الخليفة عن شئون الدولة

وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمد الأمين
في اللهو والشرب ، وإظهاره الاهمال لشؤون الملك ، حتى
كانت تمر السنة لا يفرغ فيها ساعة للنظر في اخص الامور ،
كأعمال الخراج والضيايع ومتصرفات الحكام . دخل عليه يوما
اسماعيل بن صبيح كاتبه فاذا هو عازم على الاصطباح ،
وقد أحضر الندماء والمغنين وصفت الموائد ، وأقبل الخليفة
على مائدته وأبتدا . فقال اسماعيل بن صبيح : « يا أمير
المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال
الخراج والضيايع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال
منذ سنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا
دخول خال في الأعمال » . فقال له محمد : « ان اصطباحي
لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا انقبض عنه ،
من عمى وبني عمى وأخوتي ، وهم أهل هذه النعمة التي
تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فأعرضه على
وأنا آكل ، لأتقدم اليك فيه بما تحتاج اليه ، الى أن يرفع
الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعا أو أبرم
الباقي وأفرغ منه . فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في
دواوينهم ، وأقبل اسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد
يأمر وينهى بأحسن أمر ونهى وأشدّه ، وربما شاور من حوله

في الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع في شيء وضع بالقرب من اسماعيل بن صبيح . ورفعت المرائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدرح أقل من رطل واحد في تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء أسره اليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن علي وابراهيم بن المهدي ، فما مشوا عشر أذرع ، حتى أقبل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا . فلحق محمدا وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله اعدل من أن يرضى ذلك » ومحمد يضحك

وقوع الخلف بين الأمين والمأمون

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، أن وافي الأمين أجله وولى الخلافة المأمون أن يجزيه شرا بفعلته . فجعل يزين للأمين صرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير لا يعرف حسنا ولا يعقل قبيحا ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الأمين والمأمون ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الأخوين . فقطعت الدروب من بغداد إلى خراسان وفتشت الكتب وصعب الأمر . وفي شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه وأسقط اسم المأمون من الخطبة في بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشر بينهما . ويقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول . وسارت الركبان بقدر محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حسن سيرة المأمون وما كان يظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين وأنحرفوا عنه . وفي سنة ١٩٥ جهز الخليفة على بن عيسى بن ماهان ومعه عسكر كثيف

وسلاح كثير وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعا مودعا . ثم تشاغل بعدها بلأوه وبطالته وتخلي عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص على بن عيسى الى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهر مدينة الرى ، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى

اللهو والخمر في إبان الخطر

وكان ذلك جميعه ، والامين في غفلة سادر في لذته ، منهمك في لعبه متفرغ لصيده ونزهته . حتى ليروى انه حين ورد نعى على قائده ، كان في وقته ذلك على شط دجلة يصيد السمك . فقال للذى اخبره : « ويلك ! دعنى ، فان كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئا بعد » . على ان الامين لم يلبث ان أفاق للخطر ، لما شاع الخبر بان المأمون أعلن خلعه بعد ان أتاه كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه في جميع كور خراسان ومايلها ، فجعل الامين يتابع ارسال الجيوش والقواد واصطنع في أموره شيئا من الجد

وجعل الامين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنوده وعامة رعيته بين الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنوتهم وكبر عندهم ما يرونه من احتجاجه عنهم ، فكان يجلس لهم بعض الاحيان ساعة من نهار ، وبين يديه الفضل بن الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكينا لهم ومراجعة لآمالهم . وكان اذا جلس في مجلسه هذا أذن للناس عامة ، فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد انه لم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل الا أمر بالسكوت ومنع من القول . وفي هذه المناسبات أنشد أبو نواس مدائحه القصار في الخليفة الامين ، تذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رَأَتْ العيونُ نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

فَأَنْتَ نَسِيجٌ وَحَدِيدٌ لَا شَبِيهَ
مُخْلِقَتَ بِالْمَشَاكِلِ لَيْسَ
كَأَنَّ الْمُلُوكَ لَمْ يَكْ قَبْلُ شَيْئاً
نَحَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا خَدِينِ
فَأَنْتَ الْفَوْقُ، وَالشَّكَلَانِ دُونَ
إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمُلُوكِ الْأَمِينِ

النزهة على الحراقات في دجلة

وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حراقات في دجلة على
خلقة « الأسد » و « الفيل » و « العقاب » و « الحية »
و « الفرس » ، وانفق في عملها مالا عظيما ، وقد اتخذها
للنزهة . وكان اذا خرج لركوبها اصطفت له الخيل وعليها
الرجال على شاطئ دجلة ، وحملت معه المطابخ والخزائن .
وفي مرة من هذه المرات كان ركوبه الى الشماسية في الحراقة
التي على مثال الاسد . فما رأى الناس منظرا ولا مسيرا كان
ابهى واحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه
يومئذ وهو ينادمه فقال :

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سِرَّهْنَ بِحَرًّا
أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعَيْهِ يَعْدُو
لَا يَعْانِيهِ بِاللَّسْجَامِ وَلَا السَّوْ
كَعْجِبِ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صُورِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سِرَّتَ عَلَيْهِ
ذَاتِ زَوْرٍ وَمَنْسَرٍ وَجَنَاحِ
تَسْبِيحِ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَبَدَّ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا هُ وَأَبْقَى لَهُ رُوءَاءَ الشَّبَابِ

ولأبى نواس غير هذه قصيدة أخرى في حراقة على مثال
الدلفين ، مطلعها :

قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحماً في الماء قد لججا

ضيق الأمين بسوء سمعة شاعره

ولما كان أبو نواس في مجاهرته بالمعاصي وتهتكه في السكر
قد شاعت له سمعة قبيحة ، واشتهر بشهرة فاضحة ، فقد
أشفق إبراهيم بن المهدي من حرج ذلك على الأمين في وقت
هو أحوج ما يكون فيه إلى أهل الجدد والرأي للخلاف الذي
كان قائماً بينه وبين المأمون . فلم يتمالك أن دخل على الأمين
وقال له : « ما رأيت كالذي ظهرت به من التهتك وخلع
العدار وتخلية نفسك وهواك ، حتى لقد نادمت أبا نواس
وهو خليع الفكر مشهور بالمجون والتهتك » . فنظر إليه نظرة
منكرة ، وقال : « الساعة ترى ، هاتوا أبا نواس » . فلما
جاء سلم وجلس ناحية . فقال الخليفة : « ههنا » ، فأدناه
حتى حكى ركبته ركبته . وأقبل أبو نواس ينشده ويحادثه ،
فيفكه به وينبذه له من كل ضرب . ثم قام الشاعر لبعض
حوادثه ، فأقبل الخليفة على عمه وقال : « يا إبراهيم ! من
يصبر عن مثل هذا ، ولا يحتمل فيه كل شيء ، والله ، أن
هذا يحسن منه كل ما يأتي به » . ويعترف إبراهيم بن
المهدي أن الذي قاله الأمين حق ، وأنه ما رأى في الدنيا مثله
. ولقد وجد دعاة المأمون في منادمتهم للأمين واختصاصه
به وجهاً من أوجه الحيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب
عليه باحتماله إياه . فكان وزير المأمون الفضل بن سهل ذو
الرياستين يخطب بمساوىء الأمين ويحرض الناس على
قتاله ، وقد أعد رجلاً يحفظ شعر أبى نواس فيقول : « ومن
جلساء محمد الأمين رجل ماجن كافر مستهزئ يقول كذا
وكذا » وينشد قوله :

ألا فاستقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تستقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
وينشد قوله :

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ

مُقمٌ - سيدي - نَعْمُصِ جَبَّارَ السموات
وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهل العراق
فيقول : « أهل فسق وفجور ، وخمور وماخور » . فيلعنهم
من يحضر المجلس من أهل خراسان . فكتب عيون محمد
الأمين إليه بذلك ، فجزع لذلك وأراد التنصل من التبعة
واسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبه على الشاعر وينزل به
نقمة . وكان قد اتصل به عنه أبيات أحفظته عليه ، منها
قوله وهو سكران يشير إلى ما أدى إليه الخلف بعد وفاة
هرون الرشيد :

استقنيها يا ذفافه مرة الطعم سلافه

هاتها جهراً ودعني من أحداث خراجه

ذلّ عندي من جفاها لرجاء وغـ...لافه

مثل ماذلت وضاعت - بعدها رون - الخلافة

ومنها قوله مفاخرا وهو بحال من العسر والحاجة :

وقد زادني تيباً على الناس أثنى

أراني أغنائهم وإن كنت ذا عسر

ولو لم أنل فضلاً ، لكنت صيانق

ففي عن جميع الناس تحسني من الفخر

ولا يطعم من في ذاك مِسْنِي طامع

ولا صاحبُ التاج المحجّب في القصر

فبعث الامين باحضاره ، وعنده اعدى اعدائه سليمان بن جعفر بن ابي جعفر المنصور . فلما احضر الشاعر ومثل بين يدي الخليفة بادره : « يابن اللخناء العاهرة » وشتمه اقبح الشتم . وقال : « انت تتكسب بشعرك اوساخ ايدي جميع الناس ، ثم تقول : « ولا صاحب التاج المحجب في القصر » . اما والله لا نلت مني شيئا ابدا »

وطرده من حضرته ، وكاد ينتهي الامر عند هذا الحد

ولكن الخرازة التي كانت بنفس الامير الهاشمي على الشاعر ما كانت لتجد في ذلك شفاءها . فاقبل الامير على الخليفة كالمنكر ورفع اليه ان ابا نواس هجاه ولم يكف عن النيل منه ، ثم زاد : « وانه زنديق كافر حلال دمه » وانشده من اشعاره المنكرة أبياتا . فاطرق الامين لحظة ثم قال متلظفا : « ياعم اقتله بعد قوله في مدحي :

صدق الثناء على الأمين محمد	ومن الثناء تكذيب وتخرص
قد ينقص القمر المنير اذا استوى	وبهاء وجه محمد لا ينقص
واذا بنو العباس أعد خصامهم	فمحمد يا قوتها المستخلص

ومضى الخليفة يتبع المقطوعة اخرى ثم اخرى وهو يردد « يا عم اقتله بعد قوله ... » : « ياعم ! فكيف اعمل بقوله ... »

فغضب سليمان وقال : « والله لو شكوت من عبد الله - يعني ابن الامين - ما شكوت من هذا الكافر ، لوجب ان تعاقبه . فكيف منه ؟ ! » . وانقطع سليمان عن الركوب اليه حتى خشي الامين ان يؤدي ذلك الى تغير الكثيرين من امراء بني هاشم عليه ، وهو فيما هو فيه من خلاف مع اخيه المأمون . فوجه الى وزيره الفضل بن الربيع وامره بحبس ابي نواس في المطبق مع الزنادقة

في المطبق مع الزنادقة

وقد حكى صاحب الشرطة انه لما حبس أبو نواس ، كان أكثر من يزوره في حبسه المرد والشبان والخمارين ، وأصحاب الريبة ، ويقول صاحب الشرطة انه عرف منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقد ذلك لما أطلق الشاعر لتفرقهم

ولما كانت الفرصة مواتية لكل مضطغن على أبي نواس ، موتور بهجائه ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميه بالحق أو بالباطل باحدى موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يرفع الى الامين من الاتهامات ، ينسبون فيها الزندقة والكفر الى الشاعر فجعل الخليفة أمر ذلك الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجدا عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رفع الى أمير المؤمنين أنك زنديق » فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل يكرر عليه ، ثم أعاده الى الحبس

استحككم الياس بين جدران الحبس

وبقى أبو نواس في المطبق دهرا وهو يترقب الموت بين لحظة وأخرى وقد تخلى عنه أصدقؤه وثقاته ، وذلك حيث يقول :

أخـالائي أذمكم إليكم	وكنت عـدكم قنأ خليقا
إذا استبطأتكم عتفتموني	وقلتهم إن فيه لذاك ضيقا
فأقسم لو تكونون الأسارى	وكنت أنا المخلّى والطلاقا
إذا لجهدت فوق الجهد حتى	أطبق خلاصكم أو لا أطيقا
فلا والله - أدخركم هجاء	وشما - ما بقيت - ولا عقوقا

وطال حبس أبي نواس في المطبق ، حتى يشس من عفوا الامين ،

ولم تبق له بارقة أمل في الخلاص الا بدخول المأمون . وذلك
في قوله :

يا ربَّ إنَّ القوم قد ظلموني

وبلا اقترافٍ معطلٍ حبسوني

والى الجحود بما عليه طوييتي

بالزور والبهتان قد نسبوني

ما كان إلا الجرى في ميدانهم

في كل خزي ، والمجانة ديني

لا العذر يقبل لي ، ويفرق شاهدي

منهم ، ولا يرضون بحلف يميني

أما الأبين فليست أرجو دفعه

عني ، فمن لي اليوم بالمأمون !

شعاع من الأمل

وكان للفضل بن الربيع خال يعرض أهل السجون ويتفقدهم
ويتعهدهم ، فدخل الى حبس الزنادقة الذي فيه أبو نواس ،
ولم يكن يعرفه ، فقال له : « يا هذا انت مع الزنادقة ؟ » فقال
له أبو نواس « معاذ الله » فقال له « فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ »
فقال له « أنا آكل الكباش بصوفه » فقال له « فلعلك تعبد
الشمس ؟ » فقال له « اني لا تجنب القعود فيها بغضا لها » ،
فجاء الى الفضل فقال له « يا هذا لا تحسنون جوار نعم الله
بحبس الناس بغير جرم » فقال الفضل : « وما ذاك ؟ »
فخبره الخبر ، فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره
وشفع اليه فيه

الافراج عن أبي نواس

وكان الأمير في غير حاجة الى اللجاجة في التشفع لشاعره ،
بعد أن بلغته منه أبيات قالها في استعطافه :

تذكره أمين الله ، والعهد يذكره

مقامي ، وإنشاديك والناس حضره

ونثرى عليك الدرّ يا درّ هاشم !

فيا من رأى درّا على الدر ينثر

أبوك الذي لم يملك الأرض مثله

وعمّك موسى الصفوة المنخير

وجدك مهديّ الهدى ، وشقيقه

أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر

ومن مثل منصوريك : منصور هاشم

ومنصور قحطان إذا عدّ مفخر

فمن ذا الذي يرمي بسهميك في العلا

وعبد مناف والدك وحمير

تحسنت الدنيا بوجه خليفة

هو البدر إلا أنه الدهر مقمر

أيا خير مأمول يرجّى : أنا امرؤ ،

أسير رهين في سجونك مقبر

مضت لي شهور ، منذ حبست ، ثلاثة

كأني قد أذنبت ما ليس يُغفر

فإن كنت لم أذنب ، فقيم حبستني ؟

وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

فلا غرو إذا رأينا الخليفة الأمين يهش لما تقدم به الوزير
من شفاعاة في الشاعر السجين ، حتى لم يتمالك أن قال
« اخرجوه واجيزوه ولو غضب ولد المنصور كلهم »

على أن الفضل بن الربيع رأى مع ذلك تدبير الأمر بما فيه
مصلحة الدولة وحسن الدعاية للخليفة . فدعا بالشاعر في
حضرة الخليفة ، وحوله بنو هاشم وغيرهم ، وكان قد دعا
بالنطع والسيف تهديدا له بالقتل . وأمر باستحلافه وأخذ
العهد عليه أن يجتنب الخمر والسكر . وقال له الخليفة ،
مظهرا الصرامة ليخفي من ورائها ابتسامه ، « فإن شربتها ؟ »
قال « دمي لك يا أمير المؤمنين » . وعاد الفضل اشفاعة
فيه ، فأطلق سبيله ، وهو لا يصدق أنه أطلق ، ومضى إلى
أهله يقول :

أهلي ، أتيتكم من القبر والناس محتبسون للحشر

لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولدٍ ولا وافر

وكتب إلى الفضل ، شاكرا له تناسي موجدته عليه
وشفاعته فيه :

ما من يدٍ في الناس واحدة كيدٍ أبو العباس أولاهـا

نام الثقات على مضاجعهم وسرّى إلى نفسي فأحياها

قد كنت خفتك ، ثم امتنني ، من أن أخافك ، خوفك الله

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوًا مُقْتَدِرًا وَجَبَّيْتَ لِي نِقَمًا فَأَلْغَاهَا

التهتك في مسوح التنسك

ولزم أبو نواس بيته من خوف المطبق ، وظل على ذلك
أياماً يظهر التوبة ويتذرع بالنسك والتقوى . وإلى القارىء
الصورة التي يمثلها لنفسه كما يريد الخليفة ووزيره على
أن يكون ، وهي — وأن تكن صورة ناسك متبتل — تكاد
لاتخفى ما وراءها من التهكم على النسك والسخر بالناسكين :
أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك
فأرعى باطلي ، وأقصر حالي
لو تراني ذكرت بي «الحسن البهيم»
من خشوع أزيته بنحول
المساييح في ذراعي ، والمص
وإذا شئت أن ترى طرفة ته
فادع بي ، لا عدمت تقوم مثلي ،
تترأثراً من الصلاة بوجهي
لو رآها بعض المُرَّائين يوماً
ولقد طال ما شقيت ولكن

ك وعودتني ، والخير عادة
وتبدلت عفة وزهاده
مرى «في حسن ميمته ، أو «قتاده»
واصفرار مثل اصفرار الجراد
حرف في لبتي مكان القلادة
يجب منها ، مليحة مستفاده
وتفطن لموضع السجادة
توقن النفس أنها من عباده
لاشترائها يُعِدُّها للشهادة
أدركتني على يدك السعادة

توبة المضطر

والظاهر أن تهديد الخليفة هذه المرة قد أفزعه وروعه .
فقد ظل زمناً يرفض الخمر ، وكلما هم بالخائفة ذكر موقفه
بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :
أطع الخليفة وأعمى ذاعزف
وتنح عن طرب وعن قصف

عين الخليفة بي موصلة
عقد الحذار بطرفه طرفي
صحت علايتي له ، وأرى
دين الضمير له على حرفي
فلئن وعدتكم تركها عدة
إني عليك لحائف خائفي
وهو يذكر في أسف لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت
الخمير فيملاً زقة من صفوها قبل الزقاق ، ويحوز قبلها
قصب السباق . ولكن ما الحيلة وهذا أمر ملك العراق ،
قد جعل هلاكه في كف ساق :

أعاذل ، لا أموت بكف ساق
ولا آبي على ملك العراق
هجرت له التي عنها نهاني
وكانت لي كمحسكة الرماق
وقد يغدو إلى المانوت زقي
فيأخذ عهوه قبل الزقاق
وكن إذا نزلت إلى مداه
حوى قد أمها قصب السباق

المنادمة على غير شراب

وكان الفتيان يتعرضون لأبي نواس للشرب معه ، وهو
يستغفهم ويعتذر إليهم . فقال بعضهم « وإن لم تشرب
فأنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر مجلس شربهم . فلما
دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه ، « ألم
ترتح لها ؟ » قال « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ
يقول :

أيها الراثون بالوم ، لوما
نألي باللام فيها إمام
لا أذوق المدام إلا شيبا
فأصرفاها إلى سواي فاني
لا أرى لي خلافة مستقيا
إن حظي منها إذا هي دارت
لست إلا على الحديث نديا
أن أراها وأن أشم النسيما

فكأنى وما أزيّن منها قعدى^١ يزيّن التحكما
كلّ عن حمّله السلاح إلى الحرّ ب ، فأوصى المطيق ألاّ يقبأ^٢
على أن الشاعر وإن يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن
ذكرها واللهج بأوصافها :
لولا الأمير ، وأنّ العذر منقصة^٣

والعار بالعدر عندي أقبح العار

جاءت بنحاتها من بيت خمّار
روح^٤ من الكرم في جسم من القار
فالريح ريح زكيّ الأذفر الدارى
والبرد برد الندى ، والاون^٥ للنار

شاعر الخمر يتغنى بالأطلال طاعة للأمر

ولكن هذا لم يرض أولى الأمر ، فشددوا عليه في ترك
التغنى بالخمر . فكأنما قضى على هذا الثائر على مذهب
العرب في الشعر ، الساخر من أوصافهم للطلول واقفر ، أن
ينعتها وإن يكن كارها لها :

أعير^٦ شعرك الأطلال والدّ من القفرا

فقد طال ما زرى به نعتك الحمرا

دعاني إلى وصف الطلول مسلّط^٧

تضيّق ذراعى أن أجوز له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة^٨

وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

احتيال الشاعر للتغنى بالخمر

ومع ذلك فقد كان الشاعر من بعد نعته للطلول يحتال
للتغنى بالخمر . وانك لتحس وقتئذ في نعوته للخمر من لهف
اشتياقها ، وسعار تعطشه لها ، ما يحرك منك - وان كرهت
- الاشفاق عليه والرحمة له :

أدير الكأس حان أن تسقينا	وانقر الدفء إنه يلهينا
غننا بالطلول كيف بلينا	واسقنا نعطاك الثناء الثمينا
ودع الوصف للطلول اذا ما	دارت الكأس يسرة وثينا
من سلاف كأنها كل شيء	يتعفى مخير أن يكونا
أكل الدهر ما تجتم منها	وتبقى لبابها المكنونا
فاذا ما اجتليتها فهباءة	يمنع الكف ما يبيع العيونا
ثم شجبت فاستضحكت عن لال	لو تجتمعن في يد لاقتنينا
في كؤوس كأنهن نجوم	جاريات ، بروجها أيدينا
طالعات من السقا علينا	فاذا ما غربن يغربن فينا
لو ترى الشرب حولها من بعيد	قلت قوم من قرعة يسطلونا
وغزال يديرها بينات	ناعمات يزيدنها الفمز لنا
كلما شئت علتني برضاب	يترك القلب للسرور خدينا
ذاك عيش لو دام لي ، غير أني	عفتته مكرها وخفت الأميना

الغزل في الساقى دون الخمر

على أن شاعرنا كان لا يعدم في مجلس الشراب بعض
التعزية عنها ، فثمة - على الأقل - الساقى المليح الفير ،

إذا هو طاف بالخمير فلم يشربها من يديه ، شربها لذيدة
مسكرة من سحر عينيه :

وأعربت عما في الضمير وأعربا	أعاذل ، أعتبت الإمام وأعتبا
ليأبى أمير المؤمنين وأشربا	وقلت لساقينا «أجزه» فلم يكن
إلى الألق الأهل شعاعاً معتباً	فجززها عني سلافاً ترى لها
يقبّل في داج من الليل كوكبا	إذا عبّ فيها شارب القوم خاتمه
على مستدار الأدن صدغاً معقربا	يدور بها ساق أغنّ ترى له
فكانت على قاي الذّ وأطيا	سقام ومنّاني بعينه منية

العودة للسكر بعد التوبة

وكان أبو نواس قديم عهد بالكوفة وله فيها أصدقاء بالفهم
ولا يبرح يحن إلى مجاسمهم . ولا غرو ، فهو شديد
العجب باطنبور ، وهم كانوا كلما جاءهم يجمعون له ضراب
الطنابير ، والكوفة كانت معدنهم . وكان أبو نواس يصحبهم
إلى بيت خمار بالحيرة يؤثره ، يقال له جابر ، لطيف الخلقة
نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يعتق الشراب سنين . وهنا كان
أبو نواس يسكر في الليلة الواحدة سكرات . ويروي الشاعر
الكوفي ابن الصلصال فيما نحن بسبيله من معاناة أبي نواس
نهى الخليفة إياه عن الشراب ، قال : قدم علينا أبو نواس مرة
وقد نهاه الأمين عن الشراب . فسأل عني ، فقل « هو
بالحيرة » فوافاني ، وفي يدي شيء من شراب جابر ، عجيب
الحسن والرائحة . فقال لي « يا أبا جعفر ، لا يجتمع هذا
والهم في صدر واحد ! » فوجهت فجمعت له من ضراب
الطنابير جماعة ، وأحضرتة شيئاً من ذلك الشراب ، فقال لي
« ألم تعلم ما حدث علي ؟ » قلت « وما هو ؟ » قال « نهاني

أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدني عليه . ثم أنشدني قصيدته أنتى مطلعها :

أيها أرائحن باللموم ، لو ما
إلى أن انتهى إلى قوله :

فكأنى وما أزيّن منها قعدى يُزيّن التحكما
كلّ عن حملة السلاح إلى الحرّ ب فأوصى المظيق ألاّ يقها
فقلت له : « اقم معنا كما حكيت من فعل القعدية » .
قال : « أفعل » . وأقمنا على ذلك ساعة ثم أنشدته شعرا يتضمن قوله :

لا تحسّين عقار خابية والهمّ يجتمعان في صدر

فبادر أبو نواس « هاتها في كذا وكذا من أم الأمين ! » .
ومد يده فأخذ القدح ، وشرب معنا . ثم شخص إلى بغداد ودخل على الأمين . فقال له « أين كنت ؟ » قال « عند صديقي الكوفي » وحديثه الحديث . قال الخليفة « فما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ » قال « شربت والله يا أمير المؤمنين » قال « أحسنت وأجملت ، فأشخص إلى الكوفة حتى تحمل إلى صديقك هذا » . فقدم إلى ، فحملني إليه . فلم أزل معه حتى قتل

وهكذا لم يلبث شاعرنا النواسي أن غلب عليه طبعه فنازعته إلى الخمر نفسه . وكيف يتأتى لمثله التنكر لها والسلو عنها وأنه ليحس بينه وبينها نسيبا شايكا ورحما ماسة ، فهو تارة ابنها ، وهي تارة شقيقة روحه :

أنا ابنُ الخمر ، مالى عن عذاها - إلى وقت المنية - من فطام

لأعنى في المدام - غيرَ نصوح - لا تلمنى على شقيقة روحى

السرف يفضى الى التلف

وكان شاعرنا مسرفا مضياعا لا تحتوى يده على عطاء مهما
جل حتى يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حمل ما حمل
اليه أولا وآخرا من جوائز ممدوحيه من الماوك والأمراء
والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من صلوات
محبي منادمته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من
ذلك كله شيئا . وياليتاه وقف في غرامه بالخمر وأستهتاره
بها عند اتلاف ما لديه فيها ، بل صار يزرى على من لا يفعل
فعله من عشاقها وخاطبيها :

يا قهوة حرمت إلا على رجل أثرى فأتلف فيها المال والنشبا
فلا غرو وقد نزفت ما عنده من مال ، أن تشتد به الحاجة
ويعانى جهد الحال ، لاسيما والخليفة غير مقبل عليه كما
كان

فهو يتوجه الى آل الفضل بن الربيع بالسؤال يستمنحهم
ويستدر عطاءهم فيبطئون عنه ، ويشكو الشاعر من خلف
الوعد وكثرة المظل ، فيثقل عتابه على نفوسهم ويلقى في
الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل في حبسه معتذرا اليه
ذاكرا بره طالبا عفوه :

أبا العباس ، ما ظننى بشكرى - إذا ما كنت تعفو - بالذميم
وكنت أبا ، سوى أن لم تلدنى ، رحيماً أو أبراً من الرحيم -
لئن أصبحت ذا جرم عظيم لقد أصبحت ذا عفوى كريم
ويتشفع بجعفر أخى الفضل قائلا :

فلا تجحدوا بى ودَّ عشرين حجة

ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

وفيما يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار الى

العباس بن الربيع في حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لعمرك ما العباس من ولد الفضل فيرجى لعرف أو يغار على بذر
فبقى كلما ناديت به للمنة دعوت مثالا لا يُسر ولا يحلى

فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتز ، فأخذه وضربه وحبسه وقيده وأسلمه إلى سجان فظ غليظ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيق عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وانفذها إلى بكر فيها :

وقيت بي الردى . زدني قيودا
وثنّ على سوطاً أو عمودا

ووكّل بي وبالأبواب دوني
من الرقباء شيطانا مريدا

وأعقب مسامعي من صوت رجس
ثقل شخصه يدعى « سعيدا »
فقد ترك الحديد على ريشاً

وأوقر بغضه قلبي حديدا

فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج وهو يقول :

يا فضل قد أوسعتني عظة ما بعدها غلط ولا سهو

ومضى الشاعر المفلوب على أمره ، يتخفف من أثقال همه في المتنزهات المونقة خارج بغداد ، بعيدا عن رجال الحكم وتناحر الأحزاب السياسية وجلبة الحرب الأهلية ، عاكفا

على الشراب لا يشبع منه ولا يفتر عنه ، كمن يتعوض مما
فات ، أو يتزود لما هو آت :
أما يسرُّك أن الأرضَ زهراءُ والحمرُ ممكنةٌ شمطاءُ عذراءُ
بادرْ ، فإن جنان السكرِ موقنةٌ لم تلتَ بمنها يدٌ لا تحرب عسراءُ

حصار بغداد

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان
وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت
الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم في
كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط في يدي
الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة الى قواده
وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أحضروني غناءكم
كما أحضرت خراسان عبد الله غناءها » ، ويستحث فيهم
قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله
لقد حدثت بأحاديث الأمم السافكة وقرأت كتب حروبها
وقصص من أقام دواها ، فما رأيت في ذلك كله حديثا لرجل
منهم كهذا الرجل في أقدامه وسياسته . وقد قصد الى
واجترا على ، فهاتوا اليوم ما عندكم » . ولكن جيوش محمد
ما برحت تنهزم بين يدي طاهر ولم تقم لها قائمة

وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأمين جندا من الشام
والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى
سوء حظ الأمين ألا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين
وأهل الشام الزواquil . فانفض أهل الشام الى بلادهم .
ونادى قائد الأبناء الحسين بن علي بن ماهان في عسكره
بالرحيل قاصدا بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين في ١١ رجب
سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء
ثاروا على قائدهم وأسروه ، وأطلقوا الأمين ، وأقصده في
مجلس الخلافة

وبينما كانت الأمور في بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام واحكام التدبير . وقد ارسل من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرقى بغداد وتحول طاهر الى الأهواز والبصرة في غربها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ونصبت عليها المنجنيقات والعرادات وصارت المدينة ترمى في كل وقت بالحجارة . فكثر الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وانتهبت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة بالناس كل مبلغ . وانفض عن الخليفة المنكود الحظ طلاب الجاه وأرباب المراتب من خاصته ، والتجار ، وأصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب ان الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، في أوساطهم التبايين والمآزر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون مركبا للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كن يتقدم الرؤساء منهم وسائر المقاتلة الى حرب أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والدرق التبتية ، وهؤلاء عراة وهؤلاء بكامل العدة ، فكان يقتل منهم الخلق الكثير

ولقد سجل هذه الأحداث وقعة وقعة في قصائد عدة ، زميل أبى نواس ومواطنه البصرى ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزي الوراق ، وهو على مجونه

قد اشتغل بهذه الخطوب واهتم لها

أبو نواس أثناء الحصار

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له هم ، وقد شغل عنه أولو الأمر ، إلا أن ينغمس في حياة الفجور والسكر . وإذا كان لم يفكر في خيانة الأمين والانحياز إلى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفاً أو يعتقل رمحاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلس اللهو ، وآلات حربه مقارعة الأقداح والتراعى بالنزهر وقد استبدل بهيعة الوغى وسفك الدماء صوت المعازف وحمرة الخمر :

إذا عبّا أبو الهيجا للهيجا فرسانا
وسارت راية الموت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربها واشتعلت تاهب نيرانا
جعلنا القوس أبدينا ونبّلت القوس سوسانا
وقدّمنا مكان الرّمح والبطرد ريحانا
فعدت حربنا سلماً وعُدنا نحن خلاّنا
بفتيان يروّن القّة لى فى اللذة قرّبانا
إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
وأنشأنا كراديساً من الحيرى ألوانا
وأحجار المجانيق لنا تفّاح لبّنانا
ومنشأ حربنا ساق سبّا خمرًا فسقّانا
يحث الكاس كي تد بحق أخراننا بأولانا

رى هناك مصروعاً وذا ينجرُّ سكراناً
فهذى الحرب، لا حربٌ تغمُّ الناسَ عدواناً
بها نقتلهم ، ثمَّ بها ننشرُ قتلاًنا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحربين :

أحسنُ من رُميَ بهرَّادةٍ ومن قذافِ المنجنيقاتِ
مُسامرته في مجلسٍ حاضرٍ أمام أعسوادٍ وناياتِ
وقينه تشدو على صحبها تُعطيك أسباب اللذاتِ
فذاك يُسلى الهمَّ لا معركُ يرمي بأحجار النياتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رايًا يرتثيه
ومذهباً في التفكير يذهب إليه ، وإنما هو شيء في أصل تكوينه
وتركيب طباعه . واليك عذره وهو لا شك أدري بنفسه :
يا « بشرُ » مالى والسيفِ والحربِ .

وإنَّ نجمي للتهور والطربِ

فلا تثقُ بي فاني رجُلٌ

أكعُ عند اللقاء والطلبِ

وإن رأيتُ الشُّراةَ قد طلَعوا

ألحمتُ مُهرى من جانب الذائبِ

ولستُ أدري ما الساعدان ، ولا التر

س ، وما بيضةٌ من اللَّبَبِ

همي إذا ما حروبهم غلبتُ

أى الطريقين لى إلى الهربِ

لو كان قصفٌ وشربٌ صافيةً

وجدتني ثم فارس العرب

وقد روى إبراهيم الطبري أنه كان في أيام الفتنة جالسا على بابي ، اذ مر به أبو نواس وقال : « قم حتى نأخذ من شأننا » فدخلا فجعلا يشربان . وأقبل الداخل بعد الآخر يدخل اليهما فيقول : « كان كذا وكان كذا » فأنشأ أبو نواس :

عندى للخمرة أسماءٌ لها دواءٌ ولها داءٌ

يُصلحُها الماءُ إذا صُفقتُ وربما أفسدها الماء

وقائل كانت لهم قصةٌ فيها أحاديثٌ وأنباء

قلت له : « أيُّ امرئٍ جاهلٍ فيك عن الخيراتِ إبطاء

اشربُ ودعنا من أحاديثهم يصطليح الناس إذا شاءوا »

الحرب الأهلية ومقتل الأمين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين : المأمونية ، والمحمدية أربعة عشر شهرا . وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله ، وصبر الفريقان جميعا . وانقطعت الموارد بالأمين في أرزاق الجند ، ف ضرب الآنية من الذهب والفضة سرا وأعطى رجاله ثم شغب عليه من لم يعطهم من قاداته وجنوده وخذلوه ، واقتصرت حامية المخلوع وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودوق البواري ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر . وكانوا في حريهم كالشياطين ، وقد اتخذوا تحت آباطهم المخالي فيها حجارة وقطع آجر يبتدرون بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعم في أصحاب طاهر ، والفرق والحريق في العراة أصحاب المخلوع واشتد الأمر بالناس أي اشتداد وهم تحت وابل المنجنيقات

والعراادات ، ينتقل أهل السكك والدروب من موضع الى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل في الطرق والشوارع . ينادى هذا « يا للمأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » فيقتل بعضهم بعضاً . وانتهبت الدور ، وأعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ، وكبير وصغير بما يسلم معه ، الى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله

وشدد طاهر النكير وضيق الخناق . وأقبل يقطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز اليه من يصير في حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه في حربه . واشتد الأمر على محمد المخلوع وجد به . فنصح اليه من نصح بالتسليم والرحمة عليه الصعاليك من أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ريعة ، لاستنفار الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة حتى أسلموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم حتى قتلوه

وهنا انقلب الكثيرون من مادحي الأمين في أيام عزه ، الى القدح فيه والتشنيع به وتعيد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون وده . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثالا على الوفاء بما روى له من رثاء

طوى الموت ما بيني وبين محمد

وليس لما تطوى النيسة ناشر

لئن عميرت دور بمن لا أودّه

لقد عميرت بمن أحب المقابر

الخاتمة

ماش أبو نواس ما عاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه الى اصابة اللذة والتهالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدم السن وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظل على حاله من الخلعة والمجون الى ان بلغ الخمسين والى ما بعد الخمسين . واذا ذكرنا أنه كان ناعما نحيل البدن تعوزه الضلعة ومنتانة التركيب منذ حداثة ثم أضفنا الى ذلك علو سنه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره بالذات وانغماسه فيها مما ينسب الى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما اذا تدبرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدودا من النساء . فالأمر اذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيا ، أو - اذا شئنا اصطناع لغة الفلسفة - كان فجورا بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو - مهما يقل عن نفسه - لم يكن أقبح أهل الأرض عملا ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفٌّ ضميرى ، هازلٌ لفظى ، وفى نظرى عَرَامه

ولقد كان فى وسع أبى نواس أن يتستر ويتكتم ويستعمل التقية والنفاق كغيره ، ويصيب فى السر والخفاء من اللهو واللوان اللذاذات ما يشاء . ومن المحقق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيرا الا فى تسترهم ومجاهرتهم ، وسرهم وعلائيته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى الى ولده :

إنْصَبَّ نهاراً في طِلاب العُلا
 حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً
 فبادر الليلَ بما تشتهي
 كم من فَتَى تحسبه ناسكاً
 ألقي عليه الليلُ أستارَه
 ولذَّة الأحمق مكشوفة
 واصْبِرْ على قَدْرِ لقاء الحبيب
 وغاب فيه عنك وجه الرقيب
 فأما الليلُ نهارُ الأريب
 يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيب
 فبات في لهوٍ وعيشٍ خصب
 يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريب

ولكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة الا في المجاهرة بها ،
 واعلام القاصي والداني بشينها ، مع المبالغة والتهويل في أمرها
 كأنما اللذة ليست هي التي تعنيه ، وإنما استهتاره بها هو
 المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا الى أن
 هذه الآفة تكون أحيانا من علامات مركب النقص في الضعاف
 القاصرين من أهل الإباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منتهك السَّتر
 وأفضتُ بناتُ السرِّ مني إلى الجهر
 وهان علىَّ الناسُ فيما أرومه
 بما جئتُ فاستغْنيتُ عن طلب العذر

ألا فاسْقِنِي خمرًا ، وقل لي هي الخمرُ
 ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
 وَبِحُ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُفَى
 فلا خير في اللذاتِ من دونها ستر

أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح

والقاريء لمجون أبي نواس ينتهي لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه بأكثر مما يقترب ، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزعات الشهوة ، مستغرقاً في تصور ما ليست له عليه قدرة . وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة يتعوض من عجزه فيما بينه وبين نفسه ، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لف لفه من أبناء عصره . وأياماً كان الحال فقد مضى صاحبنا في غوايته ، سادراً في جهالته ، مستكثراً من الفضائح ، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار ، ولا يبالي ما يجب لسنه من الوقار

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي محمد الله غير وقار

وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر ، تركزت كل شهوته في الخمر ، فاستهلك في شربها والعكوف عليها :

لم يثق لي في غيرها لذة كرخيعة في الكأس كالنار

قالوا: «شيطت» فقلت: «ما شطت يدي

عن أن تحت إلى فمي بالكأس»

فالشيخ متعلق بها ، مصر عليها ، غير آس على شيء يفوته غيرها . فهي شغله في الحياة وطلبته ، وهي ما بعد الحياة همه وموضع تفكيره وموضوع وصيته :

خليـلى بالله لا تحفرا لي القبر إلا بقطر بل
خلال المعاصير بين الكروم ولا تدنياني من السنبل
اعلى أسمع في حفرتي إذا عصرت ضجة الأرجل

على أن للشاعر مع هذا أبياتا في الزهد لا نحسبها منافسة لأبي العتاهية أو غير أبي العتاهية في هذا الباب من الشعر ، وأظهارا لاقتداره في كل غرض من أغراض النظم .
وانما الذي نراه ، أنه كان في بعض هذه الزهديات صادقا كل الصدق في شعوره ، وأن شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المنساقين في حياة الفسوق والشرب ، تنتابهم في الحين بعد الحين فترات يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب ، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفرائهم ، ولكنهم ماضون في ضلالهم لا يستطيعون عنه صبرا .

بكيتُ ، وما أبكي على دمنٍ قفّرِ
وما بي من عشقٍ فأبكي على الهجيرِ

ولكن حديثٌ جاءنا عن نبينا
فذاك الذي أجرى دموعي على النحر

بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا
فلما نهى عنها بكيتُ على الخمر

فأشربُها صرْفاً وأعلم أنني
أعزّر فيها بالثمانين في ظهري

فموقف هذا المدمن السكير في خمره ، موقف المؤمن المغلوب على أمره ، يشربها وهو عارف حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها في الدنيا وفي الآخرة :

الراحُ شيءٌ عجيبٌ أنت شاربها
فأشربُ وإن حملتك الراحُ أوزارا

يَا مَيَّنْ يَلُومُ عَلَى جَهْرَاءِ صَافِيَةٍ

صِرْ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أُسْكِنُ النَّارَ

وَالْقَارِيءُ لَزَهْدِيَّاتِهِ يَرَاهُ دَائِمَ التَّفَكِيرِ فِي الْمَوْتِ ، يَتِمَثَّلُ
حُكْمُهُ الْجَارِي عَلَى الْأَجْيَالِ وَالْأَشْيَاءِ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ بَغِيرِ
انْتِهَاءٍ ، فَيَرَى كُلَّ جَهْدٍ إِلَى ضِيَاعٍ مَا دَامَتِ الْغَايَةُ الْفَنَاءَ
وَتَسْلُطُ فِكْرَةُ الْمَوْتِ وَالشُّعُورُ بِفَنَاءِ كُلِّ شَيْءٍ وَوَشْكُ زَوَالِهِ
مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ تُوْدِي إِلَى الزَّهْدِ فِي نَعِيمِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْعَاجِلَةِ ،
كَمَا قَدْ تُوْدِي إِلَى ضِدِّ ذَلِكَ تَبَعًا لِمَزَاجِ الشَّخْصِ وَمَا رَكَّبَ
عَلَيْهِ طَبَاعَهُ . وَلَقَدْ كَانَ مِنْ شُعُورِ شَاعِرِنَا بِقُصْرِ الْمُدَّةِ الَّتِي
لِلْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَتَيَقُّظِ حِسِّهِ لِلْأَيَّامِ تَعْبِيرٌ بِهِ
سَرِيعًا ، وَلِلْعَمْرِ يُنْطَوِي بِسَاطِهِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَعَقْدُ الْحَيَاةِ
يَنْفَرُطُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَنْ حَرَّصَ عَلَى مِبَادِرَةِ اللَّذَاتِ وَالتَّمَتُّعِ بِهَا
قَبْلَ الْفَوَاتِ :

رَأَيْتُ اللَّيَالِيَ مَرَصَّدَاتٌ لِمَدَّتِي فَبَادَرْتُ لَنَدَائِي مِبَادِرَةَ الدَّهْرِ

وَلَعَلَّهُ مِمَّا تَجِبُ مِلَاحَظَتُهُ ، أَنْ أَبَا نَوَاسٍ لَا يَبْرَحُ حَتَّى فِي
زَهْدِيَّاتِهِ تَغْلِبَ عَلَيْهِ نَزْعَتُهُ الْحَسِيَّةُ ، فَإِذَا هُوَ ذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ
اقْتَرَنَ ذِكْرُهُمَا بِمَا يَتِمَثَّلُهُ تَحْتَ التَّرَابِ مِنَ الْوُجُوهِ الْوَضَاءِ
ذَاتِ السَّمْتِ وَالرَّوَاءِ

أَيَا رَبِّ وَجْهِ فِي التَّرَابِ عَتِيقٍ وَيَا رَبِّ حَسَنِ فِي التَّرَابِ رَقِيقٍ
وَمَا الْحَيُّ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقٍ

وَهُوَ إِذَا زَجَرَ نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى ، وَوَعَظَهَا بِالشَّيْبِ ،
وَاسْتَحْثَّهَا عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ لَتَفُوزَ مَعَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى
بِجَنَّةِ الْمَأْوَى ، لَمْ يَذْكُرْ مِنْ جَنَّةِ الْمُتَّقِينَ إِلَّا نِسَاءَهَا مِنَ الْحُورِ
الْعِينِ :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَأَيُّ جِدَّةٍ بَلَغَ الْمَارِحُ

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو حذر الناصح
 يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومنهجُ الحق له واضح
 قائمٌ بعينيك إلى نسوةٍ مهورهنَّ العملُ الصالح
 لا يجتلى الحوراءَ من خدرها إلا امرؤٌ ميزانُه راجح
 من اتقى اللهَ فذاك الذي سيق إليه المتجرُ الرابع

ومن كان هذا مزاجه وهذه ارادة طباعه ، فكيف يرجى
 له أن يزهد ويتبتل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات
 والمفريات مثل ما في بغداد وأرباضها في ذلك العصر ، مما
 لا يحيط به وصف ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تَنَسَّكَ بعد الحج » قلت لهم

« أرى ، وأرجو ، وأخشى طيرنا إذا

أخشى قُضَيْبَ كرمٍ أن ينازعني

رأسَ القِطار وان أسرع إغذاذا

ما أبعدَ النسك من قلب تقسّمه

قُطْرُ بُلٍّ ، فقُرى بُنى ، فكلوا إذا

فان سلمتْ - وما قلبي على تقسّمي

من السلامة - لم أسلم بيغذاذا



وإلى جانب هذه الغوايات الحسية غواية أدبية ، أن جازت
 هذه التسمية على حرص هذا الماخن على ما شاع له من
 شهرة وصيت في القبائح والمنكرات . لقيه أبو العتاهية في

المسجد وقال له : « أما آن لك أن ترعوى ؟ أما آن لك أن تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما في دونه يتعظ العقائل اللبيب ، وأنت تعاقر بنت الحان ، وتصبو صبوة الشبان ! » فرفع أبو نواس رأسه إليه وهو يقول :

أُتْرَانِي يَا عَتَسَاهِي تَارِكًا تِلْكَ الْمَلَاهِي !

أُتْرَانِي مُفْسِدًا بِالنَّس كَ بَيْنَ النَّاسِ جَاهِي !



والذي يقرأ عن أبي نواس ما ركب من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره في المجون وقبح خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرض للقتل بجهده ، وما جره على نفسه من التعزير والضرب والحبس في المطبق ، وهو لا يقصر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكر من الملاحدة المعطلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائر مارد من العصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترىء اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمن مصدق بقلبه . ولا نقول أنه لم يتشكك ، فقد عاش في عصر من عصور الشك . ولكنه شك من النوع الذي قد يعرض للمؤمن فلا يخرج به إلى الإنكار ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجري عليه ظرفاء كل عصر من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعذلونه ويعيبون عليه مجونه روايات عدة كلها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله اني لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط على ، وأرجو أن أتوب فيرحمني الله عز وجل »

وظاهر من هذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماسا لرضاه . وهى حال من التناقض توقع فى الحيرة ولا يشبين معها وجه الطريق . على أن العصر - بما كان شائعا فيه من مذاهب الجدل والكلام - لم يعدم ما يغالط به ويستند اليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة الى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الايمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الانسان ركنا من أركان الايمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يعد كافرا ، بل يقال عليه فاسق فى كذا من غير اطلاق ، واذا كان غير معدود فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم ان الله لا يتخلف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضل فيفى الله به لأن فى خلفه نقصا . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدل والله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نطيق خلاصاً يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أننا - على الاساءة والتفريط - نرجو لحسن عفو الاله
ولقد عارض الخوارج والمعتزلة هذا الراى أشد المعارضة . ولعل لهم فى ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدى اليه من تهوين أمر المعاصي وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غاد المدام وان كانت محرمةً فللكبار عند الله غفران
وقد ختم أبو نواس إحدى قصائده فى وصف الخمر ، وطروقه للخمارات معرضا ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو ابراهيم النظام لمعارضته مثلهم لهذا المذهب فى العفو عن مرتكب الكبيرة :

فَقُلْ لِمَن يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ :

« حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

لَا تَحْظِرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا

فَإِنْ حَظَرَ كَهْ بِالَّذِينَ أَزْرَاءُ »

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الْعَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ بِمَا فِيهِ مِنَ اللَّهِ ، تَرُوجُ فِيهِ مَذَاهِبُ الْأَرْجَاءِ وَخَاصَّةُ فَلَسَفَةِ الْعَفْوَ . وَلَقَدْ أَكْثَرَ الْمَجَانُ الْخُلَعَاءُ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ ، وَكَانُوا يَتَوَاصُونَ بِالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الْمَعَاصِي لِيُظْهَرَ عَفْوُ اللَّهِ أَجْلٌ وَأَشْمَلُ :

تَكْثُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا

فَإِنَّكَ بِالْغَى رَبًّا غَفُورًا

سَتَبْصُرُ - إِنْ قَدِمْتَ عَلَيْهِ - عَفْوَ ،

وَتَلَسَّقِي سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعْصُ نَدَامَةً كَفَيْكَ مِمَّا

تَرَكْتَ - مَخَافَةَ النَّارِ - الشُّرُورَا

وَيُرْوَى أَنَّ الْأَمِيرَ الْعَبَّاسَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْهَاشِمِيَّ كَانَ يَتَشَوَّقُ أَبَا نَوَاسٍ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَرَأَى ظَرْفَهُ وَكَمَالَهُ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « يَا أَبَا عَلِيٍّ ، أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ شَيْئًا فَأَسْتَحْيِيكَ ، وَأَسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِي فِي تَرْكِ نَصِيحَتِكَ . وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ مَكْبُوعٌ عَلَى الْمَعَاصِي ، مُشْتَهَرٌ بِالْقَبَائِحِ وَالْمَجُونِ » . فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! أَمَّا الْمَجُونُ ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَقْدِرُ أَنْ يَمَجِّنَ ، وَأَمَّا الْمَجُونُ ظَرْفٌ ، وَلَسْتُ أَبْعُدُ فِيهِ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ ، وَلَا أَتَجَاوِزُ مَقْدَارَهُ . أَمَّا الْمَعَاصِي ، فَأَنْتَ أَثَقُ فِيهَا بِعَفْوِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَوْ أَنَّ السَّنْدِيَّ يَقُولُ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ

وجل ، لو ثقت به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول :
 (يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم ، لا تقنطوا من رحمة
 الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا) . . .
 ولا جرم أن يكون أشد القوم تورطا في الآثام والمعاصي ،
 أكثرهم توجها الى الله ، وألهمهم بذكر عفو الله ، وأن عفو
 وسع كل شيء ، فما من ذنب مهما عظم الا وعفوه أعظم .
 ولا جرم تكون أشعار أبي نواس في ذلك فوق الجميع وفرة
 وحرارة لهجة :

يا كبير الذنب ، عفو الله من ذنبك أكبر
 ليس للانسان الا ما قضى الله وقدره
 ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
 أعظم الأشياء في أصغر عفو الله يصغر



ولقد أثرت الحياة التي عاشها أبو نواس في صحته ،
 وفعلت فعلها في بنيته ، فدب الوهن الى قوته وغاض معين
 شرته ، ورث برد شبابه وذوى عوده ، وبادرتة الشيخوخة
 قبل الأوان ، وأسرع اليه المشيب ولات حين مشيب :

شيب رأسي الهوى على صغر وليس شي من باطن الكبير

واذا عددت سننيكم هي ، لم أجيد

للشيب عذراً في النزول براسي

ولم يلبث أبو نواس ان ضعف جسمه عن المقاومة ، على
 ما به من الحيوية والمراح . فجعلت تترادف عليه الأسقام

والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب ويحمل عليها باللهو ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرض ومنعه عن الحركة . فلزم المسكين بيته ، وقضى أياما مثبتا في فراشه لا يبرحه ، عميدا لا يقدر على الجلوس حتى يعمد من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقاؤه يعودونه في مرضه ، فيجدونه كل يوم أسوأ حالا من اليوم الذي قبله ، منقوف الوجه ، متغير اللون ، قد برى السقم جسمه ، وأذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحي الذهن متنبه الحس ، لا ينسى ينظم الشعر ويغمغم به في وصف حاله ، ويكتب به الى أصحابه :

شِعْرٌ حَيٌّ أَتَاكَ فِي لَفْظٍ مَيِّتٍ صار بين الحياة والموت وقفا
لو تأملتني وأبصرت وجهي لم تجد من مثالٍ رسمى حرفا
نفسٌ خافتٌ ، وجسمٌ نحيلٌ أرمضته الأسقام حتى تعفى

ولم يلبث الحسن بن هانيء الشاعر الماجن الخليع أن طفىء وعاجلته المنية . وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن في مقابر الشونيزى في التل المعروف بتل اليهود ، على شاطئ نهر عيسى ببغداد . وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

فازعنيك الزمان يا حسن نخاب سهمى وأفلح الزمن
ليتك اذ لم تكن بقيت لنا لم تببق روحٌ يحوطها بدن

ومما يروى عنه في مرض موته أنه التفت ذات مرة الى عواده فقال : « لا تشربوا الخمر صرفا ، فاني شربتها صرفا فأحرقت كبدي » . وكان لا يكف في كل مرة - مع ضعفه وخفوت صوته - عن انشادهم شعرا له بعد شعر ، يظهر فيه التوبة ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دَبَّ فِي الْفَنَاءِ سُفْلًا وَعُلُوًّا يَا أَيْنَ أُمُوتُ عَمَّوْا فَعَضُوا
 ذَهَبْتُ شِرَّتِي بِجِدَّةٍ نَفْسِي ، وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ رَضُوا
 لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مَضَتْ بِي إِلَّا نَقَصَتْني بِمَرَّهَا بِي جُزْؤَا
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّامٍ مَسَّكَتُهُنَّ لَعِبًا وَلَهْوَا
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ - يَارَ بَ - فَصْفَحْنَا عَنَّا الْهَى وَعَفْوَا

وقد مضى بعض أصدقائه الى بيته عقب وفاته ودفنه ،
 فدخل الى مرقدہ وثيابه لم تحرك بعد ، فاذا كل ما خلفه
 قمطر فيه دفاتر وجدازات قراطيس فيها نسخ اشعار
 وغريب الفاظ ، ونرد وشطرنج وعود وطنبور . فرقع
 وسادته ، فاذا برقعة مكتوب فيها :
 يارب ، ان عظمت ذنوبي كثرة

فلقد عانت بأن عفوك أعظم

مالي اليك وسيلة^ه الا الرجا

وجميل عفوك ، ثم أنى مسلم

فهرس

صفحة

٦	مقدمة
٨	غرام جندي
١٧	طالب علم
٢٦	الدئب والحمل
٣٦	صبوات الصبا
٤٢	أثر البادية
٥١	ملتقى التيارات في ظل الدولة العباسية
٦٩	الحب الأول والآخر
٩٥	في طريق بغداد
١٠٩	دار السلام في عصرها الذهبي
١٤٦	الرشييد وأبو نواس في الأدب الشعبي والتاريخ
١٧٠	أبو نواس في مصر
١٨٤	أبو نواس في سجن المطبق في بغداد
١٩٥	نديم الأمين
٢٣٠	الخاتمة

وكلاء مجلات دار النهضة

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو في بيروت (تليفون ٧٨ - ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ - أوباحدي وكالاتها: في الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمي حلمي - صاحب المكتبة المصرية - ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٩٧

البحرين والخليج : السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
الكويت : البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

أبو نواس من الأفاض القلائل في الأدب العربي الذين
كان لهم أثر بارز في الابتكار والتجديد ، وحياة ثائرة
أحدثت في عصرهم دويا ، وتركت بعدهم ذكرا على
الأجيال حالدا فتيا . ولقد اشتهر بالمجون والمزاح . . .
ولكن مجونه ومزاحه كانا كما قال :

صار جدا ما مزحت به رب جدد جره لعب
فعلى الرغم مما قال وقيل عنه ، فقد كانت حياته
دنيا جديدة ، امتلأت بالبدايع الفنية ، وعمرت بمختلف
الصور الأدبية . وقد اهتم بها نقاد الأدب في جميع
العصور ، وعنى بها مؤرخو الآداب في عصرنا الحديث ،
حتى قال عنه الاستاذ جيب :

« برز أبو نواس على شعراء عصره وبزهم جميعا .
والحق أنه لا يدانيه شاعر من حيث نصاعة الأسلوب ،
وصدق العاطفة ، وحرية الفكر ، وبراعة البيان »
ولقد بنيت سلسلة كتاب الهلال بالعقريات في

مختلف العلوم والآداب ، خصوصا من كانت حياة
يكتنفها الغموض ولهذا اختارت هذا الكتاب الذي
الذي وضعه الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقي ، وفي
قصة حياة أبي نواس من نشأته الى وفاته . وقد
فيها منهج التراجم الحديثة ، فدرسها مرحلة من
وجلّى حياته الوجدانية والنفسية تجلية بارعة

